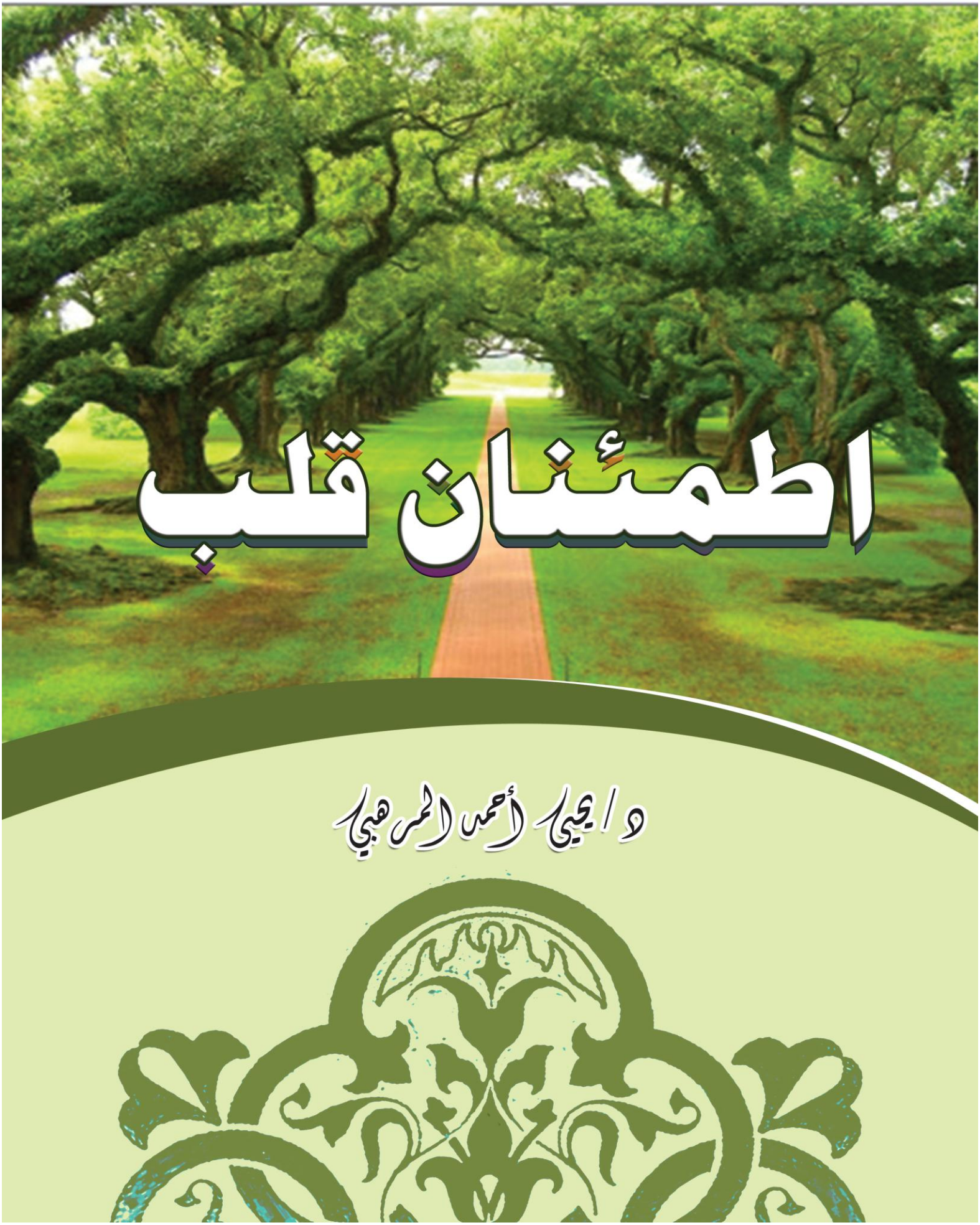

اطمئنان قلب

د/ يحيى أحمد المرهبي

اطمئنان قلب

د / يحيى أحمد المرهبي

الجمهورية اليمنية
العاصمة صنعاء - محافظة عمران

الطبعة الأولى
١٤٤٢ هـ - ٢٠٢٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

يوم لا ينفع مال ولا بنون

إلا من أتى الله بقلب سليم

إضـــــاءة

إلى من تاهَ في همٍّ وكربِ

لـــداءٍ أو لفـقرٍ أو لحـــربِ

أتى رمضانُ يعزفُ كل طيب

نقيٍّ هادئ النسماتِ عذبِ

ومن نفحاتِ شهر الصومِ جئنا

نقودكمُ إلى "اطمئنان قلبِ"

إذا اسطعنا قطافَ النورِ حقاً

فهذا كله من فضلِ ربي

وإن قصرت يدانا عن منانا

فحسبُ أخي من القرآن حسبي .

الشاعر/ محمد السلمي

فهرس الموضوعات

عنوان الموضوع	الصفحة
استهلال	4
فهرس الموضوعات	7
مقدمة	8
قلبك... هل تعرفه؟!	18
إخلاص قلب...	22
تخطيط قلب ♥ ♥ ♥	26
عالَمٌ بلا قلب...	30
سجود قلب ♥ ♥♥	35
تشابهت قلوبهم...	41
قلبٌ متوكل ♥ ♥ ♥	48
تآلف قلوب...	54
شجاعة قلب ♥ ♥ ♥	60
بين القلب والعقل...	65
مسؤولية قلب ♥ ♥ ♥	75
علاقة اللسان بالقلب...	80
القلب... هدف الشيطان في معركته مع الإنسان	85
جنّة القلب ♥ ♥ ♥	104
القرآن والقلب...	114
قلب الأم ♥ ♥ ♥	122
يحول بين المرء وقلبه...	128
استفت قلبك...	133
ليلة قدر قلبك...	139
مناجاة قلب ♥ ♥ ♥	144
عيد القلب ♥ ♥ ♥	155
مراجع مختارة	159

المقدمة:

الحمد لله مستحق الحمد والثناء، وصاحب الفضل والنعماء، والصلاة والسلام على البشير النذير، والسراج المنير، ورحمة الله للناس أجمعين، صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه الأخيار، وبعد.

فهذا الكتاب عبارة عن سلسلة مقالات، محورها القلب، ومركزها الفؤاد، تنطلق من الكلام الذي يُصلِح الله به القلوب والعقول والنفوس (القرآن الكريم والسنة المطهرة)، ونسعى من خلال ذلك وبه إلى أن نكون أفضل، ومن منا لا يريد أن يكون إنسانا أفضل، بل من منا لا يتمنى أن يكون الإنسان الأفضل، فإذا تعذَّر الكمال ـ والكمال لله وحده ـ فأن يكون الإنسان أقرب ما يمكن إلى أفضل ما يمكن.

ودعني أضرب لك مثالا بين يدي تقديمي لهذا الكتاب، فلو كان بيدك جوزة وقال الناس أن في يدك لؤلؤة، ما كان ينفعك قولهم، وأنت تعلم أنها جوزة، ولو كان في يدك لؤلؤة، وقال الناس أنها جوزة، ما غرك قولهم، وأنت تعلم أنها لؤلؤة. قليلون هم من يستطيعون أن يفرقوا بين الجوز واللؤلؤ، وقليلون هم من يعرفون ذلك من نفوسهم. إن القلب أعظم لؤلؤة يمكن أن يمتلكها الإنسان، ويجمِّل بها باطنه وظاهره، إذا أحسن إدارة هذا القلب، وجاء به في آخر المطاف سليما،

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ الشعراء: ٨٨ – ٨٩، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ الصافات: ٨٤.

إن عالم القلب عالم واسع، وصحته ومرضه قضيتان دقيقتان، يتوقف عليهما فساد دنيا الإنسان وآخرته أو صلاحهما. فالقلب إذا كان مريضا رافقه في الدنيا مواقف متناقضة خاطئة، يبقى الإنسان معها في قلق وحيرة، وكان عاقبة أمره إلى بوار وخسار. والقلوب مريضة، قد أتعبها النفاق، وأتعبها التنافر مع كل ما حولها. قال ابن السماك: الله المستعان على ألسن تصف، وقلوب تعترف، وأعمال تختلف. وكم يعجب المرء عندما يرى إنسانا، يغسل وجهه مرات كل يوم، ولا يغسل قلبه مرة في العام.

إن إصلاح القلوب هي إحدى مهمات الرسل الأساسية، والفشل في إصلاح قلب الإنسان، يُخرِج لنا نماذج مرضيَّة من البشر، بل قد يخرج لنا نوعا ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ الكهف: ١٠٤.

وإصلاح القلب يحتاج إلى (علم) و(عمل) و(صحبة). العلم: ليَعْلمَ الإنسان ماهية الصحة من المرض. والعمل: لإنهاء المرض وطرده. والصحبة: لاستمرار الهِمّة في مواصلة الطريق إلى الله. و"الكلمة إذا

خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان". كما يصفها أديب العربية مصطفى صادق الرافعي.

والعلم ـ كما هو معروف ـ حقيقة محايدة، لا تؤدِّي بذاتها إلى الخير أو الشر، ولا تؤدِّي بذاتها إلى الهدى أو الضلال. ولكن القلب الذي يستخدم هذه الحقيقة هو الخيِّر أو الشرير، هو الذي يتجه بها إلى طريق الهدى أو طريق الضلال.

وحديثنا في هذا الكتاب، لن يتطرق إلى القلب المادي (الماكينة أو المضخة)، بل سيركِّز على القلب المعنوي، الذي وصفه علماؤنا الأوائل بأنه (لطيفة ربانية روحانية)، لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهي الجانب المُدرِك العالِم العارِف من الإنسان، وهي المُخاطَب والمُعاتب والمُعاقب والمُطالَب، ولها علاقة مع القلب الجسماني، حسب تعبير الشيخ سعيد حوى.

ولن أدخل في حلبة النقاش والجدال، حول ما هو الفرق بين القلب والروح والنفس والعقل، فهذا ميدان آخر، لن أخوض فيه، لأنني مؤمن بأن الإنسان ليس قلبا أو عقلا أو نفسا أو روحا أو جسما، بل هو كل هذه مجتمعة، تؤثر وتتأثر ببعضها، وما تقسيمنا الحديث عنها إلا تقسيما يكتنفه بعض التعسف نوعاً ما، يحكمه جانب التفصيل والتركيز لكل جانب على حِدة، زيادة في التوضيح والبيان، وإلا فهذه المَلَكَات يجمعها كيان واحد هو (الإنسان)، وقد كان لنا في

كتاب سابق، وقفات مع (النفس)، تحت عنوان: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾ الشمس: ٩، وقد وفق الله، وتم إخراج هذه الوقفات في كتاب مستقل، يحمل نفس العنوان.

إن قلبا مليئا بالحب كقلوبكم أيها القراء، لخليق أن ينبض في كل صدر، وإن عقلا يتدثر بالحكمة كعقولكم لحقيق أن ينفذ إلى كل عقل، فلتحافظوا على سموكم، ولا تلتفتوا إلى الوراء، ولا تلوموا الظروف التي تقف أمامكم، فأنتم كما قال الشاعر:

تلوم الظروف وتشكو الضجر وتبكي صروف الزمان الأمرّ
رويدك كل الذي تشتكيه لأجلك يوما ستلقى الأثر
فلو لم يطاردك ريح ورعد وبرق لما صرت غيث المطر
ولو لم يحاصرك جيش الظلام لما كنت نجما يُرى أو قمر.

إن من يجهل، يطمئن حيث لا طمأنينة، ويقلق حيث لا قلق، ويعيش في حيرة من جراء المصائب التي تنزل به، ولا يعرف مأتاها إلا ظناً وتخرصاً، حسب وصف المفكر الإسلامي جودت سعيد. أما من يعلم، وإن كان يعجز عن تغير كل شيء مرةً واحدة، فإنه يعرف أين يضع القلق، وأين يضع الطمأنينة، ولا يصاب بالحيرة، وإنما يقوم بما يقوم به من عمل فيما يُجدِي دون أن يَحْقِرَ ما يقوم به من عمل، ولا يطمع في إزالة الجبال في ساعة، ولا يحقر من جهده القليل الذي يبذله

مما يقرب إلى الهدف، كمن يمشي على الخريطة والبوصلة، لا كمن يضرب في تيه الأرض دون معرفة.

وسنة الله لمن كسب عِلَّة القلب باختياره وسار متمادياً، أن تتيسَّر له سنة الله ليزداد عِلَّة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ التوبة: ١٢٥، ومن كسب صِحَّة القلب، وصابر تيسَّر له ذلك، فازداد إيمانا إلى إيمانه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ التوبة: ١٢٤. وطبقا للقرآن فقد خُلق الرجال والنساء لنفس الغرض، واشتركوا في التكاليف، التي تأهَّلوا لها، ويتعرضون لنفس السنن الكونية، وسيحاسبون في الآخرة بنفس المقاييس. (د. مراد هوفمان).

والهداية عمل قلبي تمارسه الجوارح بعد مروره بمرحلة الاقتناع العقلي، والقمع مفسدٌ وماحقٌ لذلك كله. والإسلام لا يطلب أن تنفذ أوامره الشرعية تنفيذا آليا وبدون تعقُّل أو تدبر، بل لا بد قبل كل شيء أن تسري أوامره إلى أعماق الضمير فيتشربها القلب، ثم تصدر من القلب على أنها أوامر ذاتية انبعاثية، لأن أول خطوة في امتثال

الواجب العقلي هو الإيمان بوجوده وعدالته، وإذا لم يذعن الإنسان لأوامر الشريعة امتثالا لوجوبها في ذاتيتها على أنها حق وعدل كان العمل كله هباء عند الله، وفي نظر قانون الأخلاق، "فالعقل بريد الشرع، الذي لا سبيل إلى الامتثال للأوامر والنواهي إلا عن طريقه". كما يقول الدكتور محمد السيد الجليند.

وضياع المقاصد والمعاني وفراغ العبادات من روحها ومضامينها. أكسبت العبادات في الغالب أشكالاً وظواهر لا تأثير لها في السلوك. تُؤتَى الصلاة دون التناهي عن المنكرات، ويؤتَى الصوم مرفوقاً بأنواع شتى من الانحرافات، ويؤتَى الحج دون توقف عن الماضي الفاسد ... كل هذا لأن العبادات لم تَنْفُذْ إلى القلب فتؤثر فيه.

وإنشاء أمة جديدة يحتاج إلى أمرين كبيرين، أولهما: إعداد الإنسان الذي يتمتع بسلامة القلب ومزود بمنهج سليم، وثانيهما: تعريفه بخالقه، وفلسفة حياته، ومهمته، ومصيره، ومسؤوليته عن ذلك المصير. فالضلال قد يأتي بسوء المنهج وطرائق التفكير، وقد يأتي بسوء الطوية وانحراف القلب. وفق تعبير الدكتور جاسم سلطان.

وأصل نزاع الأمة بسبب ذنوبها، تختلف قلوبها، ثم تختلف أبدانها وإن أصَّلت وقعَّدت لنفسها الخلاف بالحجج والبيِّنات، فكثيرا ما تدخل الأهواء على النفوس فتسلك طريقا، ثم تحتجُّ لذلك الطريق

من القرآن والسنة والأثر، وهكذا نزاع عامة الفرق والطوائف والجماعات في الإسلام.

ودعوني أضع بين أيديكم هذا المثل، الذي يوضح مدى ما يمكن أن نقع فيه إذا بقينا في حالة تهيب وخوف من التواصل مع الآخر، فقد قيل: أن ثمة ثعلبا لم ير من قبل أسدا. لكن ذات يوم صادف واحدا وجها لوجه، فاستبد به الرعب حتى أحسَّ بأنه سيموت من مجرد النظر إليه. وقد صادفه مرة أخرى، وخاف منه أيضا، لكن أقل من المرة الأولى، وفي المرة الثالثة استجمع شجاعته للاقتراب منه والتحدث إليه. هذه الحكاية تظهر أن الألفة تسكِّن المخاوف، أو كما نقول في أمثالنا (قارب الخوف تأمن)، وهذا ما يجب على الأمة أن تتقنه، فلا تتهيب من التواصل بالآخر، وأن تدخل عليه الباب، فإن الغلبة من نصيبها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ المائدة: ٢٣ .

إن السعادة فيض من الداخل، وإن معرفة الله تتم بتأمُّل العالم من خلال نور الداخل، وإن الانكفاء للداخل هي عملية اكتشاف الذات، لأنه من وعي الذات يحدث وعي العالم، فمعرفة الله فيض السعادة. والقلوب هي محل نظر الله ـ سبحانه وتعالى ـ، (إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم

وأعمالكم)، رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وكلما كانت القلوب أصفى وأنقى كلما استقبلت عطايا الله وحوّلتها إلى عطايا لخلقه، فهي كماء السماء طاهرةً في نفسها ومطهرة لغيرها.

والقلوب في علاقتها بالنور، كالبيوت التي لها نوافذ زجاجية، تسمح بدخول الضوء وخروجه، وكلما كانت النوافذ أكبر وأنظف، كلما سمحت لكمية أكبر من الضوء دخولاً وخروجا، والقلوب مثلها، فكلما كانت أكثر إخلاصاً وشفافية، كلما سمحت بدخول نور الله إليها، لتعكسه نوراً وضياء لهداية خلقه.

وبالمقابل فإن القلوب المظلمة، تشبه البيوت المظلمة أيضاً، تلك البيوت التي تنعدم فيها النوافذ، التي تسمح بدخول الضوء وخروجه، فتعيش تلك القلوب في ظلمة، ومن أين لها النور وقد سدّت بالمعاصي نوافذه، ﴿ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠ ﴾ النور: ٤٠. (على بصيرة، تأملات في الدين والحياة، للمؤلف).

وهناك ترابط بين العقل والقلب، كما يقول المفكر الإسلامي الدكتور جاسم سلطان، فإذا كان العقل مركز التدبير، فإن القلب هو مركز المشاعر والعواطف. والإنسان كما أنه كائن عاقل، فإنه كائن عاطفي، بل هو كائن تحركه العاطفة، والعقل ضابط لها، وكل فكرة لا تحركها العاطفة هي فكرة ساكنة لا تتحول إلى سلوك، فكم من

الأفكار الكبيرة لا يتحرك لها أصحابها ولا يتحمسون لها بسبب انصراف عواطفهم عنها.

وقد ذهب ديكارت، في كتابه (الفلسفة الخلقية)، إلى القول: "بأن المعاني الأخلاقية الفاضلة قد نقشها الله في قلب الإنسان". وبناء على ذلك فإن البشر ليسوا لحما ودما، حسب وصف الأستاذ أدهم شرقاوي، فهذا هو الجزء الظاهر منهم، البشر في الحقيقة مشاعر وكرامات، وكل عطاء لا يراعي مشاعرهم وكراماتهم سواء كان عطاء ماديا أو معنويا، فإن الحرمان خير منه، فإذا أراد الإنسان أن يعطي فليعط من قلبه أو ليمسك.

وإصلاح الإنسان عمليَّة صعبة ومعقَّدة؛ لأن ذلك يقتضي طرحَ أفكار، وخَلْعَ معتقدات، وغرس البديل الصالح مكانها، والمفتاح الحقيقيُّ لأي حركات إصلاحيَّة، يَكْمُن في إيقاظ ما يُسمَّى بالضمير، وحراسته، والسَّير عليه؛ حتَّى لا يغيب عن حضوره، ويغفو عن موقعه، أو يخضع لِنَزوة طارئة، وهوىً عارضاً، وتراثنا ـ المفترَى عليه ـ هو الذي أمدَّنا بهذه الحقيقة الناصعة، التي اعتبَرها أصحابُ المذاهب الفلسفيَّة والخلقية نقطةَ البدء في كلِّ حركات إصلاحية، وهذه حقيقة عبَّر عنها الرسول - صلَّى الله عليه وسلَّم - بقوله: (ألا إنَّ في الجسد مضغةً، إذا صلحَتْ صلح الجسدُ كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألاَ وهي القلب). متفق عليه، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

وتغيير الواقع لا يتحقق بتجارب شخصية محدودة، أو بخبرات بادي الرأي، ممن تدفع بهم الظروف إلى مقدمة الصفوف، أو برفع شعارات دون برامج علمية وعملية، مهما كانت هذه الشعارات صحيحة في ذاتها ودلالاتها، وفق تعبير الدكتور فتحي ملكاوي. كذلك فإن تغيير الواقع لا يتحقق بتمنيات المخلصين في قلوبهم، مهما ارتجَّت هذه القلوب، ولا بدعوات المؤمنين في صلواتهم، مهما ارتفعت أصواتهم بالدعاء! فالذكر والدعاء ليسا حركة لسان مع غفلة قلب وشرود ذهن. إن الذكر والدعاء وعيٌ مكتملٌ، وهو من وظائف (العقل القلبي) قبل كل شئ.

سأقول مع المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي: إن الكائن الإنساني كائن لا يُقهَر، بل وأزيد: إن من يمتلئ قلبه بالإيمان يكون في مقدوره تحمل ما لا يتحمله الصخر في جبله. فالقلب سر المرء وخلاصته، وما الجوارح إلا مظاهر ومشاهد وخدم.

والذنوب تختلف بحسب أعمال القلوب، كما يؤكد على ذلك الأستاذ عبد العزيز الطريفي، فقد يكون الذنب عظيما فيقترفه العبد بقلب خائف وجل من عقوبته وأثره، فهذا الذنب في حقه أقل من غيره، وقد يقترف العبد الصغيرة وهو مستهين بها غير مبال بمن عصى، فتكون في حقه أكبر من غيره. ومع هذا، فإن القرآن عندما تناول الغرائز تناولها متفهما لا متهما، ولحكمة ما سجدت الملائكة للإنسان.

ألا يشير هذا السجود إلى معنى تفوق ما هو إنساني على ما هو ملائكي؟ وفق تعبير المفكر الإسلامي علي عزت بيجوفيتش.

يقول ابن القيم الجوزية: (لما جلس الإمام الشافعي بين يدي الإمام مالك، وقرأ عليه، أعجبه ما رأى من وفور فطنته، وتوقُّد ذكائه، وكمال فهمه، فقال له: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية).

إن القيام بأي نشاط تعبدي ينبغي أن يستغرق الزمن الذي يحتفظ فيه القلب بنشاطه وسروره فحسب، إذ من الواجب علينا ألا نحوِّل عبادة الله إلى عمل بغيض إلى قلوبنا (لا تبغِّض إلى نفسك عبادة الله)، مسند الإمام أحمد.

لقد اشتق لفظ الوضوء من الضوء، لأنه يبعث النور في الوجه وفي القلب معا، وما ضوء الوجه إلا انعكاس للضوء الداخلي للنفس والقلب. ألا ما أجملَ أن يجتمع للمرء قلبٌ مهمومٌ بأمر أمّته ووطنه، وعقلٌ يعرف كيف يصنع من الهَمّ هِمّةً، وفق تعبير الدكتور/ فؤاد البنا.

والقرب ـ يا أحبتي ـ لغة من لغات القلوب، والتنافر والتباعد إحدى مهمات الشيطان ونزغاته، ونحن في أمسِّ الحاجة إلى أن نكون أقرب من ربنا ونبينا وقرآننا، فمثل هذا القرب يشعرنا بالطمأنينة والسكينة، وأكثر ما يكون الحب والشوق، حين تدنو الديار من الديار.

وأكثر ما يكون القلب شوقا إذا دنت الديار من الديار.

ومع علمنا أن للطاولة أرجل، ولكننا نتقبل أنها لا تسير، كما نعلم أن للقلم ريشة، ولكننا نتفهم أنه لا يطير، ونعلم أن للساعة عقارب، ولكننا متأكدون أنها لن تلسع، نعلم أن للباب يداً، ولكننا موقنون أنه لن يصافحنا، ونعلم أن كثيراً ممن حولنا لهم قلوبا، ولكنهم لا يشعرون بنا. ومع هذا فإننا نردد الدعاء القائل: ربيّ لا تجعلنيّ وجعاً لـ (قلب) أحد، ولا تجعل أحداً وجعاً لـ (قلبي).

قلبك... هل تعرفه؟!

ستقول لي مستنكرا: وهل في ذلك شك؟! ومن منا لا يعرف قلبه؟! وعندها أقول لك: لعلك تقصد أنك تعرف القلب (العضلة) التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوان، ذلك القلب الذي يضخ حوالي 22.000 إثنين وعشرين ألف جالون من الدم يوميا، أي 8.030.000 ثمانية ملايين وثلاثين ألف جالون في السنة، أي ما يعادل 481.800.000 أربع مائة وواحد وثمانين مليونا وثمان مائة ألف جالون خلال 60 عاما هي متوسط العمر، وهو ما يزن نحو 345.000 ثلاث مائة وخمسة وأربعين ألف طن!!. ترى هل تستطيع أي (مضخة) أخرى أن تقوم بمثل هذا العمل الشاق لمثل هذه الفترة الطويلة دون حاجة إلى إصلاح أو صيانة، ومع هذا الإعجاز الرباني والحكمة البالغة لهذا العضو أقول لك: ليس هذا هو القلب الذي أعنيه!

ما أعنيه هو قلب آخر، يسكنه الإيمان أو الكفر، قلب يملأه الحب أو البغض، قلب يحتوي على الرحمة والمودة أو الحقد والحسد، قلب يشرق فيه سراج التوحيد أو تعشش فيه خيوط الظلام، قلب يفهم ويفقه ويعقل ويعي، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ الملك: ١٠، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن

كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ق: ٣٧، فالحاسة قد تكون موجودة ولكنها معطّلة، وقد تكون ظاهرة للعيان، ولكن وظيفتها منعدمة، وهذا ما أثبته القرآن لمن يسمعون، ولكنهم لا يسمعون على وجه الحقيقة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الأنفال: ٢١.

ولعلك الآن أدركت أنني أتحدث عن نوع آخر من القلوب، قد يكون في طي النسيان عند البعض منا، ولكن الإنسان مطالب بالتعرف عليه، وإزالة ما تراكم عليه من غبار السنين، حتى يعرفه أكثر، ومن خلاله سيعرف الكثير والكثير، ولهذا فمن يريد أن يرى قلبه ويعرفه على حقيقته من الداخل فإن المرآة لن تسعفه إلى هذه المعرفة، بل عليه أن يقلب عيونه إلى الداخل ليرى قلبه بكل وضوح، إن صح هذا التشبيه.

كقبضة اليد قلبي في مساحته لكنه ساحة كبرى لأحبابي
يضم دنيا عجيبا أمرها وبها لهوي وحزني وأفراحي وأوصابي.

لقد كان اهتمام القرآن الكريم بالقلب واضحا أشد الوضوح، إلى حد احتوائه على أكثر من 120 آية تتحدث عنه بجوانبه المختلفة، بحيث تتعدد صوره، فتارة نشعر أننا أمام صورة العقل ذاته، وتارة

نشعر أننا أمام صورة العاطفة والمشاعر الوجدانية، وثالثة نشعر أننا أمام الجانبين معا: جانب العقل وجانب العاطفة وهكذا.

كما تحدث القرآن عن القلب بالإشارة إلى المكان الذي هو فيه (الصدر)، في أكثر من أربعين آية، وأشار إليه بكونه (الفؤاد) في ستة عشر آية، إضافة إلى المعاني غير المباشرة التي تناولها القرآن في حديثه عن القلب، ومثل ذلك عشرات إن لم تكن مئات من أحاديث المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه، التي تتحدث عن القلب في جميع أحواله صحة ومرضا، وهذا التركيز الإلهي والنبوي على القلب، يدل دلالة واضحة على المكانة التي يحتلها القلب في حياة الإنسان على المستوى المادي والمعنوي.

ولعل أكبر نقطة ضعف في الحضارة الحديثة التي تظلل الناس اليوم، كما يشير إلى ذلك الدكتور عبد الكريم بكار، أنها وضعت كل ما يتعلق بشؤون القلب والروح في ذيل اهتماماتها، حتى بات ينظر إلى من يتحدث عن الإشراق الروحي أو صفاء القلب أو الأنس بالله نظرة إشفاق واستغراب.

والحضارة الحديثة -أيضا- نزعت من الإنسان قلبه، فأصبح من غير مشاعر، وأضعفت لديه سلطان الضمير، والخوف من عقوبة الآخرة، وأحلت محل ذلك الأعداد الهائلة من القوانين والعقوبات والجُند، ومع ذلك فأعمال العنف والجرائم المختلفة في تزايد مستمر.

إن هذا العالم ينقصه القلب وحرارة القلب، كما يقول صاحب كتاب (عودة الوفاق بين الطبيعة والإنسان، لجان ماري بيلت)، والغريب أن ما تبقى له من تلك الحرارة يميل إلى التضاؤل مع زيادة ما يستهلكه من طاقة.

والثقافة -كما هو معروف - هي صانعة الهوية، ومانحة الولاء، والذين يحتقرون ثقافتهم هم أولئك الذين انسلخوا من الأمة، ولم يبق لهم بها ارتباط غير صلة (المكان). وكم في عالمنا العربي والإسلامي من بشر جسمه في وطنه، وقلبه وعقله يطوف حول أصنام لندن أو باريس أو واشنطن...جسده هنا، أما عقله وقلبه فهناك، إنه مأزوم مهزوم، حتى سويداء القلب، ونخاع العظم.

إن الإنسان ليغير حياته عندما يغير قلبه، وعندما ننجح معا في إحداث هذا التغيير فإننا نغير الحياة، فأحسنوا التعرف على قلوبكم لتغيروا حياتكم وحياة أوطانكم ومن حولكم.

إخلاص قلب...

في واحدة من حكمه البديعة، يقول ابن عطاء الله السكندري: (كما لا يحب الله العمل المشترك، كذلك لا يحب القلب المشترك، العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يُقبِلُ عليه)، ووالله إنها لخسارة مزدوجة (لا قبول للعمل، ولا إقبال على القلب).

والعمل المشترك هو المشوب بالرياء والتصنّع، والقلب المشترك هو الذي فيه محبة غير الله تعالى، والسكون إليه، والاعتماد عليه، فالعمل المشترك معتلٌ بنظر صاحبه إلى الناس، والقلب المشترك معتلٌ بنظر صاحبه إلى نفسه. ولهذا فالله لا يحب العمل المشترك، ولا يثيب عليه، لفقد الإخلاص منه، والقلب المشترك لا يحبه الله ولا يُقبِلُ عليه، ولا يرضى عنه، لعدم وجود الصدق فيه. فمن صحح أعماله بالإخلاص، وأحوال قلبه بالصدق، كان محبوبا عند الله، مثابا ومرضيا عنه، وإلا فلا. "والخطأ الأكبر أن تنظم الحياة من حولك ثم تترك قلبك في فوضى"، كما يقول أديب العربية مصطفى صادق الرافعي.

"إن القلب المقفر من الإخلاص، لا ينبت قولا، كالحجر المكسو بالتراب لا يخرج زرعا! والقشور الخادعة، لا تغنى عن اللباب الرديء شيئا! ألا ما أنفسَ الإخلاص، وأغزر بركته، إنه يخالط القليل فينميه حتى يزن الجبال، ويخلو منه الكثير فلا يزن عند الله هباءة". الشيخ محمد الغزالي، خلق المسلم.

إن النيات الخالصة تحوِّل العادات إلى عبادات، ومن طبيعة العادات أنها تسلب من الإنسان متعة الحضور والشهود في جميع المشاهد التي يقفها بين يدي الله، والمؤمن في كل شؤونه (وَقْفٌ لله) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ الأنعام: ١٦٢، كما أن العادات تحوِّل الأعمال إلى عمل آلي، يغيب عنه العقل والقلب، وهما ترجمان الأعمال وأساس قبولها، وحالة الحضور والشهود هذه (جَمْعَة الحِس، أو التركيز واستحضار النية الخالصة لله) يثاب عليها الإنسان الذي أدرك قيمتها، بينما هي عند غيره (عادة) يتمتع بها دون أن ينال أجرها، وبالمقابل، فإن العبادات التي تغيب عنها النيات تتحول إلى مجرد (عادات) يؤديها الإنسان جسما، ويغيب عنها عقلا وقلبا، وعندها يكون الشيطان قد وجد مبتغاه، فهو لص يسرق ما استطاع الوصول إليه، خاصة عندما يغيب حارسي العمل، العقل والقلب.

والإسلام يطالبنا بالحضور والشهود في الصلاة والصيام والقيام وتلاوة القرآن والذكر والدعاء والعطاء، يطالبنا بالحضور عقلا، لنتأمل ونشهد آيات الله في الآفاق والأنفس، ويطالبنا بالحضور قلبا، يفيض خشوعا وتبتلا وإخلاصا، ورحمة وسلاما، وحبا وعطفا يسع البشرية بأسرها، ويطالبنا بالحضور جسماً، يؤدي كل عضو فيه شكر المنعم المتفضل، ويستمد من حضور العقل والقلب النور

والبصيرة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (آل عمران: 190، 191).

وتكتسب العبادات في الإسلام قيمتها بمقدار حضور الإنسان وشهوده فيها، والحضور والشهود فيها يتطلب حضور القلب والعقل، ثم تأتي بعد ذلك عبادات الجسم، وأي غياب أو قصور في حضور وشهود العقل والقلب، فإن الأعمال تصبح مظاهر جوفاء، وصورا صماء، وأشكالا لا روح فيها، لأنها خَلَتْ من المقاصد الحقة (الإخلاص والصواب)، كما أشرنا إلى ذلك في كتابنا على بصيرة.

يقول فتح الله كولن: "والإخلاص وثيقة اعتماد يمنحها الله القلوب الطاهرة، فهي وثيقة سحرية تجعل القليل كثيرًا والضحل عميقًا والعبادات والطاعات المحدودة غير محدودة، حتى يستطيع الإنسان بواسطتها أن يطلب أغلى ما في سوق الدنيا والآخرة".(التلال الزمردية، نحو حياة القلب والروح).

وأفضل العبادات ما اجتمع فيه عمل القلب، وعمل الجوارح، وقول اللسان، ويكفي مع سلامة القلب كلمة، ولا يكفي مع فساد

القلب ألف ألف كلمة، وصلاح الداخل هو من يجعل للكلمة وزنها وثقلها ومدي قبول الله لها، (والأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها. ولولا جميل ستره - سبحانه - لم يكن عمل أهلٌ للقبول)، كما يقول ابن عطاء الله السكندري.

وخير ما صعد من الأرض إلى السماء الإخلاص، وخير ما نزل من السماء إلى الأرض التوفيق، وفق تعبير الدكتور عبد الكريم بكار، والمخلص لا يأبه لاطّلاع الناس على أعماله الصالحة، فهو يعمل من أجل الله تعالى، وليس من أجل الناس، ولهذا فإنّ ظاهره يطابق باطنه، كما أنّ باطنه يطابق ظاهره.

نعم، إصلاح القلب أولاً هو البداية الصحيحة إلى كلِّ إصلاح يُراد لأي إنسان أو مجتمع أو أمة، فالقلب هو مصدر النِّية، ومحطُّ الإرادة، وهي الأداة المُحرِّكة للإنسان نحو أيِّ فعل يُراد، فماذا لو صَلُحَ وأخلص قلب التاجر والعامل والزَّارع والطالب والطبيب والأستاذ؟ ماذا لو صَلُحَ وأخلص قلب الرئيس والمرؤوس؟ ماذا لو صَلُحَ وأخلص قلب الواجد والمعدوم؟ يقيني لو صَلُحَت قلوبنا وأخلصت لصَلُحَ حالنا، واختفَتْ تمامًا كلُّ مظاهر الشقاء والتعاسة التي نعاني منها الآن.

تخطيط قلب ♥ ♥ ♥

إذا كان الأطباء يلجأون إلى تخطيط القلب، عندما يريدون معرفة وضع القلب، من حيث ارتفاع ضرباته أو انخفاضها، فيمكننا أن نستعير هذا المصطلح في جانبه المادي لنستخدمه في تشخيص القلب وتخطيطه في جانبه المعنوي، من حيث حالة استقرار القلب واطمئنانه، وارتفاع منسوب الإيمان فيه أو انخفاضه، أو حالة الانقلاب والتقلّب والاضطراب التي تعتري القلب، وما سمي قلبا إلا لشدة وكثرة تقلبه.

إذن هناك حياة أخرى للقلب لا بد من الاهتمام بها حتى لا يموت القلب موتاً معنوياً، ويصاب بأحد الأمراض الخطيرة (كالرياء والنفاق والحسد وغيرها)، وهي أمراضٌ كفيلة بإصابة الإنسان بجلطة أو ذبحة أو سكتة في دينه، وعلاقته بربه ونبيه وقرآنه، وإن مشى بين الناس وأكل وشرب، وقال بأنه حيّ.

والاهتمام بالقلب عضوياً يتمثل في الفحص الدوري، وتجنب ما يضره من مأكل ومشرب وغير ذلك، والاهتمام بالقلب روحياً يتمثل في الفحص الدوري (الصلاة إلى الصلاة، والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان... وغيرها)، وتجنب ما يضره من الآثام والمعاصي والسيئات. والقلوب بطبعها حية كثيرة التحول والتقلب من حال إلى حال، لأن الآدمي كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم (حارس همام) أي كثير

الهمِّ، وجاء في الحديث الذي صححه الإمام الألباني: (أن القلب أشد تقلبا من القدر إذا استجمعت غليانا)، فالتقلب من لوازم القلب. والقلوب بيد الله، يقلبها كيف يشاء، ولها إقبال وإدبار، فإذا أقبلت نشطت للفرائض والسنن، وتلذذت بذلك، ونافست في الخير، وسارعت إليه قولاً وفعلاً. وإذا أدبرت وضعفت فلا أقلّ من أن نلزمها بالفرائض والواجبات.

والقلب وإن لم يكن بمقدورنا التحكم السريع والمباشر بوظائفه، إلا أنه ليس بمعزل عن العين حين تبصر، والأذن حين تسمع، واللسان حين يهمس، واليد حين تمتد، والرِجْل حين تمشي، والعقل حين يفكر أو يحلل أو يتخيل. يقول الحافظ الذهبي معقبًا على أقوال العلماء في تحذيرهم من ركون القلب إلى الشهوات والشبهات: " أكثر أئمة السلف على هذا التحذير، يرون أن القلوب ضعيفة، والشبه خطّافة ".

فإنك إن أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوما أتعبتك المناظر

فلا كل ما أبصرته أنت قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنت صابر.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم، كما في مسند الإمام أحمد، كلما رفع رأسه إلى السماء قال: «يا مصرّف القلوب، ثبت قلبي على طاعتك»، وفي رواية كان يكثر من قول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». فقال له راوي الحديث (أنس بن مالك رضي الله عنه):

فقلنا يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: فقال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله عز وجل يقلبها». وقال صلوات ربي وسلامه عليه: «إنما سمي القلب من تقلبه، إنما مثل القلب كمثل ريشة معلقة في أصل شجرة تقلبها الريح ظهرا لبطن».

وإذا كان الإيمان يَخْلق (بمعنى يبلى كما يبلى الثوب) كما جاء في الحديث الصحيح: (إن الإيمان ليَخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم)، وكما في قوله: (جددوا إيمانكم، قيل يا رسول الله كيف نجدد إيماننا؟ قال: أكثروا من قول لا إله إلا الله). أقول إذا كان الإيمان يبلى وهو موجود، ويحتاج إلى تجديد، فكيف بالقلوب الغافلة، فكيف بالقلوب المصفّحة، فكيف بالقلوب التي فيها ظلمة، فكيف بالقلوب التي فيها وساوس، فكيف بالقلوب الحائرة، فكيف بالقلوب القلقة، فكيف بالقلوب الشاكّة، فكيف بالقلوب التي غزتها الأمراض والشهوات.

ألا يستحق القلب بعد كل مرحلةٍ يقطعها من الحياة أن نعيد النظر فيما أصابه من غُنم أو غُرم؟ وأن نُرجع إليه توازنه واعتداله كلما رجَّته الأزمات، وهزَّه العِراك الدائب على ظهر الأرض في هذه الدنيا المائجة؟ إنَّ الإنسانَ أحوجُ الخلائقِ إلى التنقيب في أرجاء قلبه، وتعهد حياته الخاصة والعامة بما يصونها من العلل والتفكك؛ ذلك أن الكيان العقلي والعاطفي للإنسان قلّمَا يبقى متماسك اللبنات مع حِدَّةِ

الاحتكاك بصنوف الشهوات وضروب المغريات، فإذا تُرِك لعوامل الهدم تنال منه فهي آتيةٌ عليه لا محالة، وعندئذٍ تنفرط المشاعر العاطفية والعقلية كما تنفرط حبات العِقْد إذا انقطع سِلْكُه، وهذا شأن ﴿ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ الكهف: ٢٨ (الشيخ محمد الغزالي، جدد حياتك).

وإذا أكرمك الله بنعمة فاستعملها في طاعة الله قبل أن تفارقها أو تفارقك، وإذا وضع الإنسان جهده وماله تحت شجرة الطاعة كبرت وزادت، وإذا وضع جهده وماله تحت شجرة المعصية كبرت وزادت، فهل يستويان مثلاً؟ وإذا زاد الإيمان... قويت الأعمال... ثم صلحت الأحوال... وإذا نقص الإيمان... ضعفت الأعمال... ثم ساءت الأحوال.

وإذا ذاق المؤمن طعم الإيمان، وخالطت بشاشته قلبه، اغترف وطلب الزيادة، ولم يعد يكفيه أن يأخذ الأمر رشفة رشفة، ولا رشحة رشحة، ولا نقطة نقطة، بل يريد أن يغترف من المعرفة، وأن ينهل من هذا الجمال الرباني، وهذه الحلاوة الربانية أكثر وأكثر.

عالَمٌ بلا قلب...

عاد عمر بهاء الدين الأميري (شاعر الإنسانية) إلى باكستان سفيراً مفوّضاً لبلاده، فحيّاه الزبيري (شاعر اليمن الكبير) بقصيدة من سبعة أبيات مطلعها:

رفقاً بقلبك يا "عمرْ"
لم تُبقِ منه ولمْ تذرْ
حمّلتهُ عِبْءَ البشرْ
وحكمتهُ حُكمَ القدَرْ
رفقاً به طال المسيرُ
عليه، واتصلَ السفرْ.

فأجابه عمر بهاء الدين الأميري بقصيدة من مئة وخمس عشرة بيتاً جاء فيها:

وافى كتابُكَ بالغُرَرْ
من فيضِ وُدِّكَ والدُّرَرْ
قد فصّلتْ آياته
بالحبّ وازدهتِ السُوَرْ
وذكرتَ قلبي والأسى
لمْ يُبقِ منهُ ولمْ يَذَر
ودعوتني للرِّفق في

أمرٍ تَضيقُ بهِ القُدَرْ

ما حيلتي يا صاحبي

وقلوبُ مَنْ حولي حَجَرْ

إن القلب القاسي أبعد شئ عن الله!! وقد رأيت في تجاربي (والكلام للشيخ محمد الغزالي) أن الفرق بين تدين الشكل وتدين الموضوع هو قسوة القلب أو رقته! بعض الناس في طباعهم جلافة وقساوة لا تخفيها صور العبادات التي يستسهلون أداءها، وقد ارتكب أحدهم خطأ معي، ثم عرف الحق فكره الاعتذار، وتمنى لو لم يعرف هذا الحق!! هذه طباع بعض الخوارج قد يكرهون أهل الإيمان، ويتساهلون مع أهل الكفر.

وكمون الفجور والتقوى الذي أُلهِم للنفس يتحقق من خلال جسد يجمح للشهوات أو يجاهدها، وعقل يتناجى بالإثم والعدوان أو بالبر والتقوى، وقلب متحجر أو متراحم، وصدر منشرح للإيمان أو منطوٍ على الشرور. والفلاح مختص بمن زكى النفس، والخيبة مختصة بمن دساها.

وعندما يطول زمن بُعد القلب عن الله يقسو هذا القلب، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦ ﴾ الحديد: ١٦، وكان هذا هو حال اليهود، الذين تحدث القرآن عن قسوة

قلوبهم فقال تعَالَىٰ:﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ البقرة: ٧٤ ، ورغم أن قسوة الحجارة لا يمنعها من أن تتفجر منها الأنهار، أو تتشقق فيخرج منها الماء، أو تهبط من خشية الله، فإن قلوب هؤلاء لا تتفجر بالأنهار، بل تفجّر وتنفجر في الإنسانية، ولا تتشقق ليخرج منها الماء، بل تتشقق لتمتص خيرات العالم، ولا تهبط من خشية الله لأنها لا تعرفه، فقد صارت القوة هي إله هذا العصر الذي تعبده.

وكما أن طول الأمد والبعد عن الله يؤدي إلى قسوة القلوب، فإن القلوب القاسية التي توعدها الله بالويل، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ الزمر: ٢٢، تواصل قلب الحقائق وتزوير الواقع، ونقض العهود والمواثيق، وما النظام العالمي الجديد والمنظمات الدولية إلا إحدى أوجه هذه القسوة التي تعيشها الإنسانية اليوم. إن العقل بلا قلب (رياضيات صِرفة)، والقلب بلا عقل، ريشة في مهب الريح، والعالَمُ بلا قلب غابة موحشة، البقاء فيها للأقوى.

وكنتيجة متبادلة بين القسوة والإجرام والوحشية، يضع القرآن أمامنا قاعدة مفادها، أن قسوة القلوب تؤدي إلى الإجرام والتوحش، والإجرام والتوحش بدوره يزيد من قسوة القلب، في عملية تصاعدية متبادلة، نرى آثارها فيما تلاقيه الإنسانية من معاناة في وقتنا الحاضر، فالأحجار لا تنبت عليه الأزهار، والقلب الحجري لا تنبجس منه العواطف.

والقرآن يحدثنا عن نموذج للإجرام الناتج عن القلوب الحاقدة القاسية، وحال هذا الإجرام عندما يذرف دموع التماسيح، بعد أن ألقى بيوسف في البئر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ يوسف: ١٦،فالقلوب القاسية لديها قدرة عجيبة على أن تنتج دموعا شبيهة بدموع الحزانى!: ولذا علينا أن نهتمَّ بتاريخ الباكي ونترك ملامحه الخادعة، فالتدين الصوري كثيرا ما يفضي إلى قسوة القلوب.

وفرز القلوب كفرز الصخور فمنها النفيس ومنها الحجر
وبعض الأنام كبعض الشجر جميل القوام شحيح الثمر
وبعض الوعود كبعض الغيوم قوي الرعود شحيح المطر
وكم من كفيف بصير الفؤاد وكم من فؤاد كفيف البصر
وخير الكلام قليل الحروف كثير القطوف بليغ الأثر.

والجرائم على اختلاف أنواعها إنما تنحسر في المجتمعات على مقدار ما يتمدد الإيمان في قلوب الناس، وهذا ما جعل عالم الاجتماع

الأمريكي (كريستوفر لاش)، وهو يتحدث عن وضع الأسرة في الغرب، وما يتهددها من مخاطر، أمام هجمة الرأسمالية والعولمة، وبأنها تعيش حالة التآكل الكامل، وأنها صارت تعيش في مرفأ في عالَم بلا قلب. ولما كان صمّام أمان الأسرة واستمراريتها هو الرحمة والحب، وهذا غائب في ظل حضارة الغرب اليوم إلى حد ما، فإن (الحب الحقيقي لا يختار لسكنه إلا القلب النبيل. والقلوب الأنانية لا تستطيع أن تحب)، وفق تعبير المفكر الإسلامي علي عزت بيجوفيتش

وخلاصة ما نصل إليه هو ما توصل إليه الإمام الشاطبي في موافقاته حين قال: "بذكر الله يرطب القلب ويلين، وبالشهوات يقسو القلب ويبس. فإذا اشتغل القلب عن ذكر الله بذكر الشهوات كان بمنزلة شجرة إنما رطوبتها ولينها من الماء. فإذا منعت الماء يبست عروقها وذبلت أغصانها. وإذا منعت السقي أصابها حر القيظ، فيبست الأغصان. فإذا مددت غصنا منها إلى نفسك لم ينقد لك وانكسر، فلا تصلح هذه الشجرة إلا أن تقطع فتصير وقودا للنار، فكذلك القلب إنما ييبس إذا خلا من ذكر الله، وأصابته حرارة النفس وملاذ الشهوات، فامتنعت الأركان من الطاعة. فإذا مددتها انكسرت ولا تصلح إلا تكون حطبا للنار الكبرى.

سجود قلب ♥ ♥♥

في البداية كان أمر الله للملائكة بالسجود لأبيك آدم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الحجر: ٢٩، فسجد جميع الملائكة لآدم،قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الحجر: ٣٠ ، ولم يرفض السجود إلا إبليس، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ الحجر: ٣١، فصار إبليس برفضه السجود مطرودا ملعونا، وصار عدوا لآدم وذريته إلى يوم الدين، وهذا السجود (سجود الملائكة لآدم) سجود تكريم، كي يعرف آدم ومن بعده ذريته منزلتهم عند الله، ثم كان أمر الله للإنسان بالسجود له - سبحانه - سجود عبادة وخضوع، ليتعرَّف الإنسان على ربه ويعبده. ولحكمة أرادها الله سجدت الملائكة للإنسان، وهذا السجود يشير إلى معنى "تفوق ما هو إنساني على ما هو ملائكي". حسب وصف الأستاذ علي عزت بيجوفيتش.

وما بين السجود الأول الذي يعرِّف الإنسان بمكانته (سجود الملائكة لآدم)، والسجود الثاني الذي يعرِّف الإنسان بجلال وعظمة ربه (سجود الإنسان بين يدي الله)، يدرك الإنسان مقدار حاجته للسجود، الذي يجعله منسجما ومتناغما مع هذا الكون الساجد

والمسبّح بحمد ربه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾ الحج: ١٨ ،و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ الإسراء: ٤٤ ، فيترقى الإنسان في مدارج الكمال، سائرا إلى ربه، طالبا القرب منه، من خلال هذا السجود، لأن ربه أخبره أن السجود طريق القرب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾ ﴾ العلق: ١٩. وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم، كما في صحيح مسلم، قوله: (أقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجد، فأكثروا الدعاء).

وهذا السجود المطلوب من الإنسان ليس سجود قهر وإكراه، بل سجود رضى واقتناع، فالقهر يخضع (القوالب) لكنه لا يخضع (القلب)، والإكراه سوس ينخر في العقائد، لأنه يدفع البشر إلى النفاق، لذلك ترك الله أمر الإيمان للإنسان دون إكراه منه - سبحانه وتعالى-

ولا إجبار، حتى يذهب الإنسان إلى الإيمان بقلب عاشق، فالله تعالى لا يريد (أعناق عبيد) وإنما يريد (قلوب عباد).

والسجود ليس هيئة، إنما السجود معراج العارفين، السجدة التي يحضر فيها قلبك لا ترفع منها رأسك حتى تسدّ "جوع" روحك، تلك الأسرار التي في صدرك انثرها على سجادتك، لو عرفتَ من تعبُد لاشتقت أن تسجد، في السجود أنت في نظر الناس تهبط، ولكنك في الحقيقة تصعد.

"ووالله إن القلب ليسجد سجدة لا يرفع منها حتى يلقى الله عز وجل"، كما قال أحد التابعين، وإذا سجد القلب لله هذه السجدة العظمى سجدت معه جميع الجوارح، وعنا الوجه حينئذ للحي القيوم، وخشع الصوت والجوارح كلها، وذل العبد وخضع واستكان، ووضع خده على عتبة العبودية ناظراً بقلبه إلى ربه ووليه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم.

وقد أوضح الإمام ابن القيم في كتابه القيِّم (مدارج السالكين) حاجة القلب إلى ربه، إذ في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر في ذلك إلى وقت لقائه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه

ودوام ذكره وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدا.

وأن نكلم الله لحظة بقلب من غير كلمات، أفضل وأعظم من أن نكلمه دهرا بكلمات من غير قلب، هذا لو أردنا حقا أن نصل إلى الله، وأن نعيد بالاتصال به برمجة نفوسنا، وأن نبصر من خلال نوره وفضله الطريق إلى سعادتنا، وأن نمحو بحسنات صلاتنا وسجودنا، كما وعدنا حقا، سيئات قلوبنا وخطايا أرواحنا.

فعندما تضع يديك وقدميك ووجهك وتسجد بثبات على الأرض تشعر فجأة كأنك رفعت إلى الجنة، لتتنفس من هوائها، وتشتم تربتها، وتتنشق شذى عبيرها. وكأنك توشك أن ترفع عن الأرض وتوضع بين ذراعي الحب الأسمى والأعظم، فهذه اللحظات من الألفة المقدسة تخلق في المتعبد شوقا عارما كي يكون قريبا من الله، وتصبح الآخرة هدفه الأساس من خلال عيشه في هذه الحياة ونصبه فيها. (جيفري لانغ، حتى الملائكة تسأل).

والسجود أعظم من الركوع والقيام في الصلاة، لأن السجود أكثر تواضعا، وأقرب إلى الأرض، والعبادة التي يكون فيها الإنسان أكثر تخفِّيا أفضل من غيرها من جنسها مما تكون علانية، إلا ما دل عليه الدليل، فالسجود أظهر تخفيا ونزولا إلى الأرض، وأشد انكسارا وتذللا

واعترافا بالتقصير، والصوت في السجود عند المناجاة أخفى من صوت القائم والراكع.

والسجود عبادة مستقلة تشرع بأسبابها ولو بلا صلاة، كسجود التلاوة والشكر. والسجود يورث الإنسان تواضعا للخالق، وإذا رأيت متكبرا، فاعلم أنه قليل الصلاة أو عديمها، لا يجتمع كبر مع كثرة السجود. وفق تعبير الأستاذ عبد العزيز الطريفي.

وتأمل معي مغزى كلام الدكتور سلمان العودة، وهو يتحدَّث عن تجربة أثيرة على قلبه، استقاها من والدته، فيقول: "ذات مساء مسحت أمي على رأسي وقالت: يا ولدي الطريق إليه (إلى الله) طويل، انتبه أن تتوقف، ثم أشارت إلى الأعلى، ومنذ ذلك الوقت وأنا أحاول الصعود إليك، وكلما اقتربت إليك وجدتك أقرب إلى قلبي وأبعد من خيالي".

وحتى أسمى المطالب التي يمكن أن يتمناها الإنسان، يمكن العبور إليها من محراب السجود، كأهم ركن من أركان الصلاة، وهذه تجربة أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكيف سموا بمطالبهم، فقد روى مسلم في صحيحه عن ربيعة بن كعب الأسلمي، قال: كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: سَلْ (أي اسألني أو أطلب مني)، فقلت: أسألك

مرافقتك في الجنة، قال: أو غير ذلك؟! قلت: هو ذاك، قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود.

تشابهت قلوبهم...

لم تعد الطيور وحدها هي التي تقع على أشكالها، حسب ما كنا نقول: (إن الطيور على أشكالها تقع)، فقد صارت هناك قلوب وعقول وألسنة وأعمال تقع على أشكالها وتتشابه مع مثيلاتها، ولم يعد (شنٌ) يوافق (طبقة)، كما كنا نردد (وافق شنٌ طبقة)، بل صار في مجتمعاتنا وأوطاننا أشباه (شن وطبقة)، تتشابه قلوبهم وعقولهم وألسنتهم وأعمالهم.

وفرق كبير بين تشابه وتشابه، فهناك قلوب تتشابه في صفائها ونقائها وإخلاصها ورقتها، وهناك قلوب تتشابه في حقدها وخبثها ودنسها وقسوتها، وهناك ألسنة تتشابه في طيبها وحلاوة كلماتها، وهناك ألسنة تتشابه في جلافتها ومرارة كلماتها، وهناك أعمال تتشابه في صلاحها ونفعها ونتائجها، وهناك أعمال تتشابه في فسادها وخرابها وعاقبة نتائجها، إنه تشابه عجيب يصل في كثير من الأحيان حد التطابق، فتجد أن القلوب والعقول والألسنة والأعمال الخيِّرة تتشابه وكأنها تصدر عن (مشكاة واحدة)، وتجد أن هناك قلوبا وعقولا وألسنة وأعمالا خبيثة تتشابه إلى درجة أن تكون (حذو القذة بالقذة).

وقد تشابهت أقوال قوم هود، وأقوال قوم نوح، ومن بعدهم، في تكذيب الرسل عليهم السلام لأن ضلالة المكذبين متحدة، وشبهاتهم متحدة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ

تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ البقرة: ١١٨، فكأنهم في حالهم هذا كأنما لقَّن بعضهم بعضا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ الذاريات: ٥٣

وقوله: (تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ) تقرير لمعنى قال الذين من قبلهم (مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡ)، أي كانت عقولهم متشابهة في الأفكار وسوء النظر، ولهذا اتحدوا في المقالة. لقد تشابهت قلوبهم فتشابهت ألسنتهم، تعرفهم بسيماهم، ولتعرفهم في لحن القول، وما تخفي صدورهم أعظم. وهذه الآيات تدل على أن سبب تشابه مقالاتهم لرسلهم، هو تشابه قلوبهم في الكفر والطغيان، وكراهية الحق، لأن ﴿ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ المؤمنون: ٧٠

وتأمل معي قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ الأعراف: ٧٠، تجد أننا لو نزعنا عن هذه الآية

ومثيلاتها صفة الخصوصية، ونظرنا إليها على أنها مواقف تابعة لما بأنفس وقلوب القوم الذين شأنهم هذا، نعرف كيف تتشابه دوافع النفوس والقلوب في اتخاذ مواقف متحدة.

والعجيب أن من تتشابه قلوبهم في الزيغ، تتشابه مواقفهم عندما يسمعون كتاب الله، فيتركون المحكم من الآيات ويتبعون ما تشابه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ آل عمران: ٧، يتركون المحكم من الآيات، ويتشبثون بالمتشابه، ثم يقولون ﴿ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا ﴾ البقرة: ٧٠

وعندما تحدث الله عن المنافقين قال عنهم: ﴿ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۘ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۗ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ التوبة: ٦٧، وعندما تحدث عن المؤمنين قال عنهم: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ

يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٧١﴾ التوبة: ٧١ ، وقوله عن المنافقين (بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۘ)، كما في تفسير الشيخ الشعراوي، أي أنهم كلهم متشابهون وسلوكهم مبني على التقليد والاتباع، فهم يقلدون بعضهم بعضاً. وبما أنهم قد أقاموا عقيدتهم على الشر، فكلهم شر، ولا يوجد بينهم من ينصحهم بالخير أو يحاول رَدَّهم عن النفاق، بل هم يمضون في تيار الشر إلى آخر مدى. وقد شمل قوله: (بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۘ) جميع المنافقين والمنافقات، لأن كل فرد هو بعض من الجميع، فإذا كان كل بعض متصلا ببعض آخر، علم أنهم سواء في الأحوال.

وقول الحق سبحانه: (بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۘ) أي: لا يتميز أحد من المنافقين والمنافقات عن الآخر في الخسة والقبح والفضائح، أما المؤمنون فعقيدتهم مبنية على الاقتناع وعلى الخير. فإن وُجد في مؤمن شر؛ فَوليُّه من المؤمنين يبعده عن الشر ويعيده إلى طريق الخير، (المؤمنون نَصَحَة والمنافقون غشَشَة).

ومن قرأ كلام اليهود (بالعِبرية)، وجد أنه يشابه كلام المنافقين (بالعربية) والفرق اختلاف اللغة فقط، خفايا القلوب تخرجها الشدائد والمحن. كما يقول الأستاذ عبد العزيز الطريفي

فقد قال الفتى العربي يوما شبيه الشيء منجذب إليه.

وقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم، والخبر هنا جاء في معرض التحذير والتنبيه، أن أناسا من أمته سيتبعون طرق وأساليب اليهود والنصارى، ويسعون للتشابه معهم والتشبه بهم، في عملية تقليد وتبعية أدخلتهم (جحر الضب)، فقال، والحديث متفق عليه: "لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلتموه، قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟!"

وقال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر منبها ومحذرا: «من تشبه بقوم فهو منهم» (أخرجه أحمد وأبو داود)، وفي الحديث دلالة على أن التشبه مفضٍ إلى المماثلة، فمن تشبه بقوم وتكلف التخلق بأخلاقهم، والتأدب بآدابهم، واستمر على ذلك ومرن عليه الزمان الطويل، اكتسب رياضة قوية، وملكة تامة، وصار ذلك التكلف كالطبع له، وانتقل عن الخلق الأول.

وتأمل ما قاله الشيخ رشيد رضا، وهو يعلق على حديث (من تشبه بقوم فهو منهم) "بأن القصد في المحاكاة داخل في معنى التشبه؛ لأن صيغة التفعّل تدل على ذلك، وأن معناه من تكلّف أن يكون شبيهًا

بقوم في شيء بتكرار محاكاتهم فيه؛ انتهى التشبه به إلى أن يكون مثلهم في ذلك الشيء، والحديث لا يدل على ذم التشبه في كل شيء، ولا على مدحه في كل شيء، ولا على أن المتشبّه بقوم في شيء يكون مثلهم في جميع الأشياء".

وحتى لا نغتر ونتماهى مع حضارة الغرب في حَسَنِها وقبيحها وخيرها وشرها، علينا أن نعرف الغرب على حقيقته، فالغرب شبيه بمجتمع القراصنة، على ظهر سفينة، حسب تشبيه الدكتور خالص جلبي، فهم فيما بينهم، وكل من يطأ سفينتهم، يعامل بقانون القراصنة، فهم أقرب إلى العدل بين بعضهم بعضا، ولكن القراصنة، كما نعلم يجوبون البحار، في شكل عصابات، يمزقون لحم الآخرين، ويسطون على السفن، ويخطفون عباد الله، ويسفكون دم الآخرين لأتفه الأسباب. و "لا أزال أذكر يوما وقد مجَّدت الغرب وحضارته (بحق وباطل) أن عاتبني وهو يتلو عليَّ قوله تعالى:﴿ وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ البقرة: ٩٣ (من رواية رواء مكة، حسن أوريد).

وأخيراً، إن كان هناك من رغبة وشوق للتشبه والتشابه مع الآخرين، فليكن التشبه بالعظماء من أوائل هذه الأمة، وعلى رأسهم

جميعا القدوة العظمى صلوات ربي وسلامه عليه، وليكن التشابه والتشبه بالآخرين في صفاء القلوب وطهارة النفوس وسمو العقول، وطيب الكلام، ومحاسن الأخلاق، وحسن الأعمال وصلاحها.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح.

قلبٌ متوكل ♥ ♥ ♥

عندما تتراجع الأمة عن ميادين الفعل، تتراجع بالتوازي مع ذلك فعالية القيم في حياتها، فتتشوه معاني المصطلحات المتعلقة بمظاهر (العمل الصالح)، ويتم إخراجها من ميادين الحياة الاجتماعية وإخراجها عن مدلولاتها الأصلية، وقد أورد الدكتور ماجد الكيلاني عدة أمثلة ليدلل بها على ذلك، فمثلا انقلب معنى (الصبر) ، فصار صبرا على المرض والجهل والفقر والظلم والهزيمة والتخلف، بعد أن كان صبرا على مواجهة التحديات، ومقارعة الشر، ورد العدوان، وإرهاق العمل وعلاج الأمراض المختلفة. وانقلب معنى (الزهد) فصار عجزا عن العمل وقعودا عنه، ورضى بالفقر والضعف والهوان، بعد أن كان زهد الأغنياء والأقوياء بالثروة والجاه في سبيل المثل الأعلى. وانقلب معنى (التوكل) فصار تبريرا للارتجالية، والفوضى وعدم الإعداد وإضاعة الوقت والمقدرات، بعد أن كان ثباتا وإصرارا بعد استكمال الاستعداد والتخطيط. وانقلب معنى (التسليم للمشيئة الإلهية)، فصار تبريرا للتراخي وعدم الإنجاز، بعد أن كان تصميما على مواجهة المصاعب واستهانة بكافة العقبات ما عدا مشيئة الله.

إن التوكل هو إيمان القلب المؤمن بقدرة الله وحكمته وعدله والقبول بقضائه وقدره، وتوكل القلب إنما يأتي من إيمانه بالغيب، والتوكل هو أن يتعامل المسلم مع الكليات الربانية في الحياة من

منطلق الثقة بالله والرضا والتسليم من عواقب الأمور على ما قضى الله وقدَّر. وخلاصة عقيدة المسلم ومنهج عقليته بشأن الكليات الربانية في الحياة هي أنها كلها في عواقبها خير، فهي خير بالشكر على النعمة، وهي خير بالصبر على الابتلاء.

والتوكل على الله إنما هو توكل متأسِّس على الأخذ بالأسباب التي ارتضاها ناموسا للكون والحياة، ذلك لأن الله ـ تعالى ـ هو المعتمد في كل نتيجة من نتائج الأعمال، إذ هو القيوم على كل شيء، ولكن اعتماده للنتائج جعله وفق السنن التي وضعها ناموسا عاما للخلق، فمن توكل عليه بالتزام سننه كانت نتيجة عمله الفلاح، ومن سار على غير سننه فإنه في الحقيقة لم يتوكل عليه لأنه خالف سننه، ولذلك فإن نتيجة عمله تكون الخسران نتيجة الإخلال بالتوكل على الله التوكل الصحيح، وفق تعبير د. عبد المجيد النجار.

وحقيقة التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح، أو دفع المضار، من أمور الدنيا والآخرة كلها. و"التوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده". (كما يقول الإمام أبو حامد الغزالي في إحيائه).

قال سعيد بن جبير: "تحقيق التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب التي قدر الله ـ سبحانه وتعالى ـ المقدرات بها، وجرت سنته في خلقه

بذلك، فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب، مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة لله، والتوكل بالقلب عليه إيمان به.

والأخذ بالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه، والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره، "فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل، ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية". ابن رجب الحنبلي

والتوكل على الله يكون بمجموع أمرين: الاعتماد عليه والثقة به، والإيمان بأن الخير منه وإليه، والعمل بما أمر به والأخذ بالوسائل والأسباب التي رتب عليها النتائج والمسببات. والتوكل يكتنفه أمران: التوكل قبله، والرضا بعده. فمن توكل على الله قبل الفعل ورضي بالمقضي له بعد الفعل فقد قام بالعبودية. ولو توكلت على الله لرضيت بما يفعله الله لك.

وسر التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده فلا يضره مباشرة الأسباب، مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله توكلت على الله مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء وتوكل القلب شيء، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء، فقول العبد: توكلت على الله مع اعتماد قلبه على غيره مثل قوله: تبت إلى

الله وهو مصر على معصيته مرتكب لها، حسب وصف شيخ الإسلام ابن تيمية.

وعليه، فإن التوكل في حقيقته هو الاعتماد على الله، وهو هنا مجاز في الشروع في الفعل مع رجاء السداد فيه من الله، وهو شأن أهل الإيمان، فالتوكل انفعال (قلبي عقلي) يتوجه به الفاعل إلى الله راجيا الإعانة ومستعيذا من الخيبة والعوائق. ولهذا كان المِراس (الاستمرار والمواصلة) على التوكل وجعله خصلة نفسية وقناعة عقلية من أقوى ما تنصلح به حياة البشر.

ومن الإيمان بالله أخذ الإنسان بالأسباب المادية، وليس من الإيمان ترك التوكل على الله معها، فترك التوكل يُذهب بركة النتائج ولو اكتملت الأسباب. ومن هنا كان التوكل والتفويض إلى الله سبب قوة نفسية للمؤمنين، بل وعنوانا من عناوين الإيمان واليقين. "فالتوكل يسبقه أو يصحبه أو يتبعه عمل، مثله مثل الدعاء سواء بسواء، فالدعاء يسبقه أو يصحبه أو يتبعه عمل". كما يقول الدكتور عبد الحليم أبو شقة

والتوكل على الله لا يعني أن الله يلبي كل حاجاتك، أو ينفِّذ لك ما تريد، ولكن يعني أنه يملك لك نفسك، ويثبّت قلبك، ويجعلك ترضى بما يريده لك. فقد يهدي الله عبده للحق ولا ينصره، لأنه توكل عليه بالاهتداء فقط، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ

ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ﴿٣١﴾ ﴾ الفرقان: ٣١. فتوكل على الله في طلب الهداية للحق وفي العمل به تنتصر. كما يشير إلى ذلك الأستاذ عبد العزيز الطريفي

والمؤمن يعقل ويتوكل، ويفر من قدر الله إلى قدر الله، بصيرا بنفسه وأدائه ومسؤوليته، فإيمانه سعي، وسعيه إيمان، وفق تعبير د. عبد الحميد أبو سليمان، والتوكل شِقٌ من سبب الرزق الطيب، وليس كل السبب، والسعي المادي شِقٌ من سبب الرزق الطيب وليس كل السبب، وكمال السبب يتم باجتماع الشقين معاً.

وبناء على ذلك فإن حقيقة التوكل هي عدم الركون التام إلى الأسباب الدنيوية والغفلة عن خالقها ومدبرها. يقول الدكتور يوسف القرضاوي في هذا المعنى: «إنما تذم الأسباب إذا تعلق القلب بها وحدها، وجعل كل اعتماده عليها، ونسي مسببها وخالقها، وجهل أن الأسباب لا تعمل وحدها، فربما أهمل سبباً بعيداً أو خفياً، أو أغفل شرطاً لازماً، أو كان هناك مانع قوي يعوق سببه ويبطل تأثيره».

إن التوكل في أسمى معانيه هو اعتماد القلب المؤمن على الله والثقة به، والقبول بقضاء الله وقدره في كل ما يتعلق بالحياة وما يلقاه الإنسان فيها وما ينتهي إليه نصيبه منها. والتوكل هو إيمان القلب بقدرة الله وحكمته وعدله ومآل كل الأمر إليه.

وقد أكد القرآن الكريم والسنة المطهرة على أهمية التوكل على الله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ الطلاق: ٣، ومقتضى التوكل أن لا يسأل الإنسان إلا ربه ولا يتعرض لسؤال الناس إلا لضرورة قاهرة، ولا تتنافى حقيقة التوكل مع الأخذ بالأسباب، ما دام المسلم يعتقد أن الأمر كله لله، وأن الله أسند إلى عباده كسبًا وفعلا، وأقدارًا واختيارًا، وأمرًا ونهيًا، فإذا أخذ المسلم بالأسباب المشروعة واستعان بالله على نجاح مقاصده فقد حقق التوكل.

فيا رب... هبْ لنا حرية بقدر عبوديتنا لك، ويقينًا بقدر توكلنا عليك، واجعل ما بيننا وبينك مسافة حب... وقربها.

تآلف قلوب...

لحكمة بالغة، كما يشير إلى ذلك د. طه العلواني، تبنَّى القرآن العظيم مدخل التأليف وأكد عليه، ولم يستعمل كلمة وحَّد بدل ألَّف، والفرق كبير بين وحَّد وألَّف: فألّف تعني جمَّع من أجزاء مختلفة ورتَّب ترتيبا بحيث يصبح ما جمعه مؤلفا أما وحّد فتعني أنه جعل الشيء واحدا، والواحد هو الشيء الذي لا جزء له ألبته، فالتأليف من شأنه أن يُبقي على ذاتية العناصر التي تم التأليف بينها ويحافظ عليها لتتفاعل معا دون نفي لأي منها، والتوحيد ينفي الجزئية ليحقق الاندماج التام في الكل.

ولهذا فالمطلوب ألفة قلوب، لا وحدة عقول، لأن ألفة القلوب تعني سلامة الصدور، وعمق الإخاء، مهما يكن من التفاوت في الرأي، فاختلاف الرأي لا يفسد للود قضية، أما اختلاف العقول، فلا بد منه، لأنها لو اتفقت لكفانا منها عقل واحد، فالاختلاف في العقول تلاقح وإبداع، وتنوع واجتهاد، بعكس اختلاف القلوب المؤدي إلى العداوة والبغضاء والتحاسد والتنازع.

والمجتمع الإسلامي الأول، كما يقول مالك بن نبي: "لم يتأسس على عاطفة مجردة أو شعور ساذج، بل قام على عمل جوهري هو (المؤاخاة) بين الأنصار والمهاجرين، وكان ذلك ميثاقاً لتلك الحركة

الحديثة التي حاولت التأليف بين أعضاء المجتمع، تأليفاً يحمل معنى المشاركة في الأفكار والأموال".

ثم ألم يخاطب الله عز وجل رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم في التنزيل الحكيم بأنه لو كان فظًّا غليظ القلب، لانفض الناس من حوله؟ لأن فتح القلوب، والتأليف بين الناس، وتشبيك العلاقة بالمعنى الإيجابي، يحتاج إلى المرونة وإلى الحكمة التي تفكر في كل ما هو مثار للنقاش، ومحاولة البحث عن الحلول والتجاوب معها، وهو أمر يقتضي الإبداع، ويقتضي القوالب الجميلة التي تزيده رونقًا واحتفاء بالجمال المطلق.

ولأنه كلما ضاق المنهج عجز عن استيعاب المتغيرات الشخصية والاجتماعية والمعرفية، وكلما اتسع كان أدعى للوحدة والاجتماع والتأليف، فالناس ليسوا صورة طبق الأصل بعضهم من بعض. والقلوب أحيانا كحبيبات السكر قاسية، لكنها سرعان ما تذوب حين تنغمس بطيبة الغير، وروعة الإنسان ليس بما يملكه بل بما يمنحه، فالشمس كتلة من نار لكنها أعطت الكون أجمل ما لديها. وإذا أراد الله إكرام عبده؛ جعل له عيناً ما تراه بكيفيّة أخرى، أو أذن ما تسمعه بهمسة أخرى، أو قلباً ما يحبه بنبضة أخرى.

والإنسان مطالب حتى بالألفة مع الكون كله، وهذا يقودنا إلى معرفة بعض نواحي الاختلاف بيننا وبين الآخر في تربية الأجيال، فقد

ذكر د. ماجد الكيلاني أنهم في الغرب يدربون الإنسان منذ طفولته على الألفة مع البيئة المحيطة، وما فيها من مخلوقات حيوانية ونباتية والحفاظ عليها وعدم إيذائها والتلطف معها، والاقتراب بمودة وتحبب إليها مما يهيئوه لدراستها والعلم بها، بينما يخوّف الطفل في الشرق العربي من كل ما يدبّ حوله، ويشار إليه باعتباره (بعبع) يعضُّ أو يلدغ أو يخمش، لذلك تراه إذا رأى قطة أو عصفورا أو فراشة أو حشرة أو زهرة، فإن أول ما يفعله هو إيذاؤها أو إتلافها، وبذلك يقام بينه وبين الكون المحيط سدا يحول دون دراسته واكتشاف قوانينه.

واعتقاد الوحدة مع الكون والتوافق معه من شأنه أن يؤسس في الإنسان بعدا كونيا يؤسس في النفس الشعور بالقربى من الكون، وتنشأ من هذا الشعور بالقرابة وشائج من الألفة والوئام، وتنتفي بذلك كله مشاعر الخوف والعداء التي تكون نتيجة للتباعد والاغتراب، وهذا الشعور بالوئام والألفة مع الكون يصنع المناخ النفسي الذي تستعد فيه نفس الإنسان للإقبال على الكون والانفتاح عليه، والتعامل معه بتلقائية ويسر، وتختفي بذلك حالة التوتر والجزع اللذان يؤديان إلى تعطيل الطاقة الإنسانية، ويصدانها عن الامتداد الطبيعي الفعال.

وليس المقصود من الشورى في الرؤية الإسلامية هو مجرد الاسترشاد والاهتداء إلى الرأي الأصوب دائما، وفق تعبير د. عبد الكريم

بكار، وإنما إيجاد الألفة بين الناس، وزرع الثقة، وإسقاط الكلفة، وتقوية النسيج الاجتماعي، والايحاء للمستشار بأنه متميز، وأهلٌ لأن يستفاد منه خارج مجاله الخاص.

وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم ما يشير إلى أهمية التعارف المفضي إلى التآلف، حيث يقول، والحديث متفق عليه: (القلوب (وفي رواية الأرواح) جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف). والحديث يؤكد على أن التعارف يستلزم التآلف، بينما التناكر يستلزم التخالف، وبهذا تَنْبُت المتتالية الثلاثية: (التعارف) (فالتآلف) (فالتفاعل والتعاون والتكامل).

وإذا تآلفت القلوب على الهوى فالناس تضرب في حديد بارد

والقرآن الكريم يجعل من الألفة والتآلف نعمة امتن الله بها على المؤمنين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ آل عمران: ١٠٣. كما ربط الله تأليف القلوب به سبحانه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ الأنفال: ٦٣. ويمكننا أن نستخلص من هذه الآية القضايا التالية:

1-أن الخطاب رباني صادق لا شك فيه بشأن تأليف القلوب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾ النساء: ١٢٢. ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾ النساء: ٨٧

2-أن المخاطب بهذا الأمر هو الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله رحمة للعالمين.

3-أن تأليف القلوب بيد خالقها، وأنه مهما بذل في سبيل تأليفها فإنها لا تأتلف إلا إذا أراد الله لها ذلك، ولو أنفق على ذلك ما في الأرض جميعا.

وهذا ما جعل القرآن يشدد على قضية الاعتصام بحبل الله وعدم التنازع، حتى تبقى القلوب متآلفة والصفوف متراصة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ آل عمران: ١٠٣، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟

﴿فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ الأنفال: ٤٦، كما أكد القرآن على أن التوحد الشكلي، المبني على أساسات هشة سرعان ما ينهار، لأنه بني على شفا جرف هار، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ الحشر: ١٤.

ومن حرص الإسلام على تأليف القلوب، أنه جعل أحد أسهم الزكاة الثمانية (للمؤلفة قلوبهم)، وهذا يدل دلالة واضحة على ما يوليه الإسلام من أهمية لموضوع (تأليف القلوب)، حتى أنه يبذل في مقابل ذلك بعضا من أعراض الدنيا، ليرد بها قلوبا شاردة، تعلقت بالدنيا، فلعلها ترشد، وتصبح جزءا من مجتمع المسلمين المتآلف.

شجاعة قلب ♥ ♥ ♥

القلوب إن ثبتت، ثبت تبعا لها البدن، ومن الضروري وجوباً ثبات قائد الجيش، فبثباته يثبت أتباعه، ومن خوفه يخافون، فهو بالنسبة لهم كالقلب بالنسبة للبدن، لأنه يعلم من العدو ما لا يعلمون، ويعلم من قوتهم ما لا يعلمون، فالجندي يعلم قوة نفسه، لكنه لا يعلم قوة جميع الجيش، ولهذا ثبَّت الله نبيه صلى الله عليه وسلم بتقليل عدد المشركين في عينيه، كما في غزوة بدر الكبرى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ الأنفال: ٤٤، ليظهر على وجهه البشر والثبات والفرح، ليكون ذلك عامل ثبات لأصحابه. و"أعظم ما يهزم الكثرة اختلاف القلوب، فقلَّة مجتمعة أقوى من كثرة متفرقة". كما يقول الأستاذ عبد العزيز الطريفي

وإذا ضعف قلب الإنسان لم يحسن تدبير ما بيديه، وما نشاهده في فلسطين اليوم يشهد على ذلك، فالشاب المسلم يهاجم اليهودي بحجر، وسلاح اليهودي بيديه، وبالمقابل نرى الأسلحة والجيوش في

العالم العربي والإسلامي تملأ الآفاق، ولكنها لم تحرك شعرة واحدة في جسم العدو، بل تحولت إلى عكس وظيفتها التي وجدت من أجلها.

وقصة الفأر الذي طلب من الساحر أن يحوّله إلى قط، ثم إلى كلب، ثم إلى ذئب، ثم إلى أسد، (كما يروون في قصص الحيوان الرمزية)، ليكون شجاعا وقويا، خير دليل على مركزية الشجاعة في القلب، فالخوف عند هذا الفأر لم يزايل قلبه، ولذا فقد قال له الساحر في النهاية: أيها الفأر العزيز: إن سبب ما تعانيه هو أنه رغم أنك أصبحت في جسد الأسد إلا أن قلبك ما زال قلب فأر.

وعليه فإن قوة القلب، هي القوة الحقيقية التي يتسلح بها أحدنا، والجبناء في كل زمان ومكان كثيرا ما يمتلكون قوة الجسد والإمكانات، والتي قد لا تنفعهم شيئا، وكثير من الشجعان لا يملكون قوى جسمية خارقة، ولكن الذي يميزهم هو القدرة على المخاطرة والإقدام حين يحجم الناس.

والأصل في القوة أن تكون وسيلة لإقرار الحق والدوران في فلكه، فإذا خرجت عن هذا الإطار تحولت إلى اعتداء وطغيان. والإسلام يهذِّب سلوك المسلمين في استعمال القوة حتى لا يتحولوا إلى وحوش، فيحثهم على عدم استخدام القوة إلا بعد استنفاد جميع الوسائل، فيكون استعمال القوة هو آخر الحلول، كما يحب أن

تستخدم القوة في أضيق نطاق، فإذا أدت مهمتها أصبح استخدامها بعد ذلك تجاوزا في الحد يرفضه الإسلام ويشنع بمقترفيه.

وقد تعلمت من التأمل في سنن الله في الخلق وفي الطبائع التي فطر الله الأشياء عليها (والكلام على لسان د. عبد الكريم بكار)، أن القوة موصولة بالبغي والعدوان وتجاوز الحدود، ومهما كان المرء تقيا وورعا ونبيلا، فإن القوة والقدرة تدفعه في اتجاه البغي والظلم، إلا من رحم الله. وهذا ما يخبرنا به القرآن الكريم من أن الإنسان يسيء استخدام القوة، وهذا يؤدي إلى تدهور كل من رأس المال الطبيعي ورأس المال الاجتماعي، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ العلق: ٦.

والقوة من غير عقل واع وضمير يقظ، تحوّل صاحبها إلى قاطع طريق مهما كان مسمى الدين الذي ينتمي إليه. والقوة مثل النار إذا لم تستخدم بشكل دقيق وحذر فيما ينبغي أن تستخدم فيه، فإنها تتحول إلى أداة إفساد وتخريب. وبين المثير والاستجابة تكمن أعظم قوة نملكها وهي حرية الاختيار.

والأعمال العظيمة لا تنجز بالقوة، بل بالمثابرة، فما دمتَ تثابر فأنت قادر. وقوة الإرادة والقدرة على التحكم في النفس يؤديان إلى السعادة والنجاح. والمجتمع التابع المقهور أسير من يملك القوة، وليس مع الذي يملك الحق. وإذا كنا كمسلمين نملك قوة الحق، فإن الآخر يملك حق القوة، ويطالبنا بدفع استحقاقاتها، وعلينا أن نعيد

حساباتنا، ونرتّب أوراقنا، حتى يصبح لنا مع قوة الحق، القوة التي تحمي هذا الحق، وتمنع عنه عدوان المعتدي.

و"البحث عن المصائب ليست شجاعة، الشجاعة هي الاستعداد لمواجهة المصائب التي لا مهرب منها برباطة جأش". كما يقول الدكتور علي عزت بيجوفيتش. والشجاعة لا تعني غياب الخوف، بل هي الاقتناع بأن هناك شيئا آخر أكثر أهمية من الخوف. وتعلمت (والكلام لنيلسون مانديلا) أن الشجاعة ليست غياب الخوف، ولكنها الانتصار عليه، فالشجاع ليس من لا يعرف الخوف، ولكن الشجاع هو من يقهر الخوف.

وشجاعة القلب، لا بد أن تحكمها شجاعة العقل، وإلا تحولت إلى تهور، ولا بد أن يكون هناك تناغم بين شجاعة العقول وشجاعة القلوب، وإن كان هناك تقديم لأحدهما على الآخر فهو من باب أنه الأجدر بالتقديم في ذلك الظرف، وليس لأنه الأجدر بالتقديم دائما، ولذا، فإن الأولى أن تفهم الأبيات الشعرية التالية في إطار هذا السياق. يقول الشاعر:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفس حرة بلغت من العلياء كل مكان
ولربما طعن الفتى أقرانه بالرأي قبل تطاعن الأقران
إن الشجاعة في القلوب كثيرة ووجدت شجعان العقول قليلا.

اللهم ارزقنا القوة على تغيير ما يمكن تغييره من عيوبنا، وارزقنا الصبر على ما لا يمكن تغييره، وارزقنا الحكمة التي نميّز بها بين هذا وذاك.

بين القلب والعقل...

وقالَ (العقلُ) دعهُ ولا تزرهُ وقال (القلبُ) فلتذهب إليهِ

حديثُ العقلِ (موضوع) ولكن حديثُ القلبِ (مُتفق عليه).

قال الدماغ: أنا أذكى عضو في الجسد، قال القلب: من أخبرك بذلك؟

لماذا يجب أن نصغي إلى قلوبنا؟ لأنه حيث يكون قلبك يكون كنزك. باولو كويلو

إن للقلب منطقا هيهات للعقل أن يفهمه. باسكال

عندما تتأمَّل الفقرات السابقة، ستجد أنها تقدّم وتفضّل القلب على العقل، وهذا كلام البشر، لكن القرآن الكريم له رأي آخر، فهو يتعامل مع الإنسان ككيان واحد متكامل، وإذا تحدث عن القلب أو العقل أو النفس أو الروح فحديثه عنها هو حديثه عن عضو أو ملَكة في سياقها العام، وحديثه عنها هو توجيه لها وإرشاد، لتتناغم وتنسجم، بدل أن تدخل في صراع ينعكس على كيان الإنسان بكليته.

إننا دائما نقسم الطبيعة الإنسانية إلى قسمين: عاطفي وعقلي، ونسند إلى القلب الجانب العاطفي في الإنسان، ونسند إلى العقل الجانب العقلي، أما في الواقع فإن الأمر يبدو مختلفا إلى حد ما، لأن التداخل بين المعاني العاطفية والمعاني العقلية بالنسبة للقلب يضعنا أمام قضية جديدة، تتلخص بالسؤال التالي: هل نستطيع التمييز بين

الجانب العاطفي والجانب العقلي في الإنسان على أساس عضوي، فنسند إلى كل عضو من هذه الأعضاء دورا يستقل عن الآخر؟ والجواب: لا بالطبع. لماذا؟

لأن النفس الإنسانية جسم وعقل وقلب وروح، وإذا كنا نستطيع أن نتحدث عن الجسم بقدر من الوضوح والثقة، فليس لدينا القدر نفسه من الثقة في الحديث عن الروح والقلب والعقل، فالروح من أمر الله، والتي تتمثل في وجود الحياة في الإنسان كما نعرفها في الحياة الدنيا، بوظائفها وتمثّلاتها، التي تنتهي بانتهاء الحياة عندما تفارق الروح الجسد، وتكون روحاً مؤمنة طيبة، أو روحاً عاصية خبيثة. أما العقل فهو القدرة على التعقل؛ أي الوعي والإدراك، وربما يكون للدماغ شأن في هذه العلمية، لكن النص القرآني يجعل القلب هو الجهة التي يتم فيها فعل التعقُّل، فالقلوب التي في الصدور هي موضع التعقل، وفق تعبير الدكتور فتحي ملكاوي

ثم هل يمكننا أن نذهب مع العرف الشائع، الذي يؤكد بأن العقل يمثل الإرادة، وأن القلب يمثل العاطفة، وأنه إذا تحرك القلب بَطُلَ عمل العقل؟ أي بمعنى إذا طغت العاطفة على النفس البشرية سلبت الإرادة كل قواها، لأنهم كما يقولون في الأمثلة العربية (الحب أعمى).

وهذا التقسيم لا يقره القرآن، لأنه يحوّل الإنسان إلى (مناطق نفوذ)، حسب وصف الدكتور محمد الجوزو، كل منطقة لها نفوذها وقوتها وسيطرتها، فالعقل منطقة ذات نفوذ خاص، والقلب منطقة أخرى ذات نفوذ مناقض لنفوذ العقل، وهكذا تتصارع مناطق النفوذ في النفس البشرية على أساس مادي ومحدد، والغلبة في النهاية تكون لهذا الجانب أو ذاك.

إن هناك ترابطا قويا بين العقل والقلب، فإذا كان العقل مركز التدبير، فالقلب هو مركز المشاعر والعواطف. والإنسان كما أنه كائن عاقل، فإنه كائن عاطفي، بل هو كائن تحركه العاطفة، والعقل ضابط لها، وكل فكرة لا تحركها العاطفة هي فكرة ساكنة لا تتحول إلى سلوك، "فكم من الأفكار الكبيرة لا يتحرك لها أصحابها ولا يتحمسون لها بسبب انصراف عواطفهم عنها". د. جاسم سلطان

والفرق بين الإدراك العقلي والإدراك القلبي هو أن الانسان يحس بالفرق بين الإدراكين، من حيث أن ما يدركه الانسان بقلبه غير ما يدركه بعقله، وما يدركه بعقله قد لا يدركه بقلبه، إذ أن هناك خصوصية لإدراك كل من العقل والقلب، فان الإدراك العقلي منطقي تسلسلي واستدلالي، بينما إدراك القلب إلهامي واضح للعيان.

إذن، فرؤية القلب غير إدراك العقل، ودليل وجود هذا الفرق تجريبي أكثر من أن يكون منطقياً. فالإنسان أحيانا قد يشعر بحقيقة

في نفسه ولا يجد لها دليلاً منطقياً. وبالعكس قد يجد دليلاً منطقياً على فكرة ولا يطمئن إليها قلبه أو يقتنع به قلبياً، كما يشير إلى ذلك د. مقداد يالجن

ومن البعد القلبي تنبعث الحرارة والحركة، ومن البعد العقلي تبرز الهداية والاستنارة، إن من يملك قلبا كئيبا لا رغبة فيه ولا أمل ولا أمنية، كائن بارد ساكن جامد، ولا تبدو منه أي فاعلية، إنه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، أما الذي يفتقر إلى قوة العقل، والفهم والتدبر، فهو أشبه ما يكون بالسيارة التي تسير في الليل من دون مصابيح، ولا أي وسيلة للاهتداء إلى معالم الطريق، كما وصف ذلك الشيخ مرتضى المطهري

وفي بعض الأحيان يحصل انسجام وتوافق بين هاتين الملَكتين (القلب والعقل)، فقد يعجب القلب بشيء فيؤيده العقل في ذلك، وفي أمثال هذه الحالات لا يواجه الإنسان شيئا من المشكلات، ولكن في كثير من الأحيان لا يحصل هذا الاتفاق، فقد يحب القلب شيئا لا يرى العقل بتبصّره وحساباته أنه يستحق الحب، أو قد يؤكد العقل جودة شيء ما وصلاحه، ولكن يصعب على القلب قبوله والاقتناع به، هنا يحدث الصراع والنزاع بين العقل والقلب، وهنا يبرز اختلاف بعض الناس عن بعض، فمنهم من يخضع لحكم العقل، ومنهم من يخضع لحكم القلب.

ولو أن عقلك صالح للاستخدام أيها الإنسان، لجعل قلبك يقف في مكانه الصحيح منذ البداية، ولو أن تفكيرك يعمل بالطريقة المطلوبة لم يكن ليفكر بالنجاة وهو يسعى جاهدا في طريق الهلاك، ولو أن قدميك احترمتا تكوينهما قليلا لما سارتا إلى ما تجهلان نهايته، ولو أن يديك في حالة صحية جيدة لما اقترفتا كل تلك الحماقات. أنا أيضا مقصر معك... لكن لم يكن ذنب قلبي أن عقل قلبك شديد السماكة.

هناك بصر وبصيرة، هناك رؤية عينية ورؤية قلبية، فقد يمر الإنسان ببصره على كثير من الآيات والدلائل على القدرة الإلهية، ولا يحس بها ولا يدرك حقيقتها، لأن بصيرته مظلمة، لأن قلبه أعمى، وقد تتكشف له الحقائق فيراها أمامه جلية واضحة كضوء الشمس؛ يراها بقلبه، يراها ببصيرته التي في أعماق نفسه، فيدرك أبعادها، ويفهم دقائقها، فيعرف ما وراءها من حكمة.

إنها البصيرة إذن، إنها القلب، ولكل قلب هنا، قلب مبصر، قلب مشرق ومضيء، قلب يعقل ويدرك، قلب تتكشف أمامه الحقائق كما يسلط النور على الأشياء فتتضح وسط الظلمة. البصيرة: "عين في القلب تدرك الأمور المعنوية، كما أن البصر يدرك الأمور الحسية، فالبصيرة لا ترى إلا المعاني، والبصر لا يرى إلا المحسوسات، وانطماس البصيرة عماها". كما يقول الشيخ النفري. وربنا سبحانه وتعالى يقول:

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾

الحج: ٤٦. البصيرة ناظر القلب، كما أن البصر ناظر العين، وناظر القلب إنما ينظر إلى العاقبة، والعاقبة للمتقين.

القلب في القرآن عالم قائم بذاته، اتسعت معانيه وتعددت جوانبه، حتى لم يعد بإمكاننا حصره في المعاني العاطفية وحدها أو في المعاني العقلية، بل يتجاوز هذا الجانب إلى الجانب الآخر، أو يحصل العكس تماما، أو يلتقيان معا. لقد جاء لفظ القلب أكثر شمولا واتساعا وعبَّر عن معنى العقل وأضاف إليه أبعادا أخرى تتصل بالوجدان، والعاطفة والحدس، وفق تعبير د. محمد الجوزو

ونستطيع أن نقول: إن القلب هو اللفظ الذي كان أكثر أهمية في اللغة العربية من العقل منذ الجاهلية حتى الإسلام، وها نحن نراه يتردد على ألسنة الشعراء في الجاهلية ليعبر عن مكانة رئيسية في حياة الإنسان، لأنه موطن الحب والكره، ومكان السر والعلن، ومحل الفرح والحزن.

والقلب تتراوح معانيه بين الجانب العاطفي في الإنسان الذي يمثل المشاعر الوجدانية من حب وكره، وشجاعة وخوف، وألم وفرح، ولين وقسوة، وسعادة وشقاء، وبين الجانب العقلاني الذي يمثل الهداية والضلال، والإسرار والإعلان، والاستقامة والزيغ، وإطاعة أوامر الله أو عصيانها، وتلقي الوحي، والتذكر، والتفهم، والتدبر.

إنما أراد الله من عباده قلوبهم، لتكون جوارحهم تبعا لعقولهم. وعمر الإنسان يقاس بعقله ووجدانه، لا بسنيّ حياته وأيام زمانه، وأنه على مقدار حظ العقل من العلم، ونصيب الوجدان من مرهفات الحس، تكون الحياة الإنسانية، عرضا وعمقا وغنى.

والقرآن الكريم يقدِّم العقل في صورة بسيطة ليس فيها تعقيد ولا إبهام، يقدمه عقلا متأملا في الطبيعة، دارسا لظواهرها، مفكرا فيما هي عليه من دقة ونظام وإحكام، مقارنا في النتيجة بين الحقائق البديهية والأوهام المصطنعة، ليصل إلى يقين ثابت بوجود الخالق المبدع، الذي أوجد الكون على هذه الصورة الرائعة. حيث أن الإيمان لم يعد قضية عقلية مجردة، بل هو شجرة تنبت في القلب، وتسقى مع الأيام، لتستقر في العقل والقلب، وتتسامى عن الظنون والشكوك والأوهام.

والعقل منحة إلهية أعطاها الله للإنسان ليتأمل بها في الكون والنفس، وفي الحياة والأحياء، وليفرِّق بنورها بين الحقائق والأباطيل وبين الثوابت والأوهام، حتى يصل من خلال نظراته وتأملاته إلى الإيمان الواثق بوجود الله، المبدع للكون، الخالق للأشياء. والعقل في القرآن هو أسمى ما في الإنسان، حسب وصف د. محمد الجوزو، لأنه هو الذي يميزه عن الحيوان، وهو الذي يصله بالكون وخالق الكون،

فهو حقيقة النور الذي يكشف له أسرار المعرفة، ليؤمن إيمانا يقينيا مدركا واعيا.

والعقل آلة تلتقط الحقائق، وتعقلها، ولكنها لا تتخذ القرار! وإنما الذي يتخذ القرار هو القلب بمعناه القرآني الخاص. و"العقل وكيل الله عند الإنسان". كما يقول الجاحظ. والإنسان منذ خلق يمقت العقل ويتمنى أن تكون للقلب الغلبة والسيادة، وفق رأي د. زكي نجيب محمود، وكأني به وهو يصدر هذا الرأي يضع قول الشاعر نصب عينيه:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم.

والمتأمل في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ الملك: ١٠، يدرك أن القرآن ربط السمع هنا بفعل دل على أن سماع دعوة الإيمان يقتضي فهم هذه الدعوة (نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ)، فإن كان هناك سمع من غير تعقل فإنه لا قيمة له، (فقيمة عمل الحواس هو قيمة ارتباطها بالعقل).

والآيات التي وردت فيها مادة (عقل) في القرآن الكريم، كان أكثرها بصيغة الفعل المضارع على سبيل الاستفهام (أفلا تعقلون)، أو الترجي (لعلكم تعقلون)، أو التقرير (لقوم يعقلون)، أو النفي (لا

يعقلون). وكل لفظ عن العقل في القرآن يعطي للعقل بُعدا جديدا غير البعد الذي يعطيه لفظ آخر.

ورغم المكانة العظيمة التي يحتلها العقل في التصور الإسلامي، إلا إنه بتكوينه وقدرته ومهمته، عاجزٌ عن إدراك الغيب، وعن إمكان الخلق؛ وهو عاجز عن تحديد ماهية الخير والشر، والحسن والقبيح، وهو عاجز عن الوصول وحده إلى وضع شرائع للإنسان تكفل سعادته، وتضمن خيره، وتوفر العدالة له، وتجنبه الأخطار والشرور. ذلك أنه ـ مع قصوره الفطري ـ محكوم بعوامل ذاتية، ومؤثرات بيئية، تنضح عليه وتؤثر في تحديد وجهته، وتحيد به قليلا أو كثيرا عن المثالية الكاملة.

ورغم ما قد يقال عن تقديم أو تفضيل القلب على العقل أو العكس، إلا أن الإنسان لا يسمى إنسانا سويا، إلا بعقله وبوجدانه (قلبه) وبجسده، شريطة أن يلتزم كل من هذه الجوانب حدود فضيلته، وهي الحكمة للعقل، والشجاعة للقلب، والعفة للبدن، فإذا تحققت في الانسان، كان هذا الإنسان إنسانا في أسمى درجاته، إنسانا يتسم بالعدالة التي هي وضع كل قوة من قواه في موضعها المناسب، وإن ذلك لينطبق على حياة الإنسان في صورتيها: الإنسان منفردا، والإنسان مجتمعا. د. زكي نجيب محمود.

ومعظم الرجال تحكمهم قلوبهم، لا رؤوسهم، فخططهم غامضة، وعندما يواجهون عقبات، يرتجلون لها حلولا ملفقة كما يتفق، ولكن الارتجال لن يزيد على إيصالك إلى الأزمة التالية، وهو ليس أبدا بديلا للتفكير سلفا بعدة خطوات، وللتخطيط حتى النهاية.

ورغم أن الشائع والمتعارف عليه هو استعمال القلب للدلالة على موطن العواطف والإخلاص، واستعمال العقل للدلالة على موطن الفكر والوعي والفهم، ولكن القرآن الكريم يستخدم لفظ القلب للدلالة على أداة الفقه والعقل والوعي، وكأن القرآن يشير إشارة واضحة إلى أن (الأفكار الكبيرة إنما تنبع من القلب).

وعظَمة عقل الانسان تخلق له الحسَّاد، وعظَمة قلبه تخلق له الأصدقاء. وكلما لمّع الإنسان جدار قلبه وعقله، انطبعت فيه كل الحقائق والجمالات. وما يسلط على ظهر الإنسان هو في الغالب ما يدور في قلبه وعقله. و "من لم يكن له عقل يسوسه لم ينتفع بكثرة روايات الرجال". كما يقول الحسن البصري.

مسؤولية قلب ♥ ♥ ♥

إذا لم يستعمل العضو في وظيفته التي خلق من أجلها، بل ترك بطَّالاً بدون عمل، فذلك خسران له، وصاحبه مغبون، وإن استعمل العضو في خلاف ما خلق له، فهذا هو الضلال والهلاك، وصاحبه من الذين بدلوا نعمة الله كفراً. وسيد الأعضاء، ورأسها وملكها هو القلب، والفكر للقلب كالإصغاء للأذن، وصلاح القلب وحقه، والذي خلق من أجله، هو أن يعقل الأشياء، وعندما يعقلها سيعرف خالقها، وعند ذلك سيتوجه له بالحمد والشكر في رضى واقتناع، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾ النحل: ٧٨.

وكما جعل ربنا جل جلاله هذه الأعضاء، وعلى رأسها القلب، هي الأدوات التي نقدِّم بها الشكر له ـ سبحانه ـ، على منْحِهِ لنا إياها، وعلى نعمه الأخرى التي لا تعد ولا تحصى، كما هو واضح من الآية السابقة، فقد جعلها هي من تتحمل المسؤولية، عندما تتصرف بغير علم، وتنطلق على غير نور الله وهديه، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦ ﴾ الإسراء: ٣٦.

إن أعلى مستويات الأداء تأتي من القلوب المفعمة بالحب والعاطفة، فإذا استطعت أن تصل إلى أعلى مكان في الإنسان وهو القلب فستحصل على أحسن أداء. وكل فكرة عاشت قد اقتاتت قلب إنسان، وفق تعبير الأستاذ الخضر بن حليس، أما الأفكار التي لم تطعم هذا الغذاء المقدس فقد ولدت ميتة، ولن تدفع بالبشرية شبرا واحدا إلى الأمام. وهي المسؤولية التي لا بد أن يتحملها القلب، ولا بد أن تكون لها نتائجها الملموسة في سلوكه مع الناس، (فلو ظهر نور العلم على قلبه لحسنت أخلاقه). أبو حامد الغزالي

إن المشاعر السلبية تغذيها اختياراتنا، ولا نساق نحوها سوقا، وتلك حقيقة تدركها فئة، وترفضها فئات، وهي تقود إلى الندامة والهزيمة ولو بعد حين. ولا يمكننا أن نرى الأشياء بوضوح إلا من خلال القلب، فكل الأمور الجوهرية غير مرئية. وعند كل ريبة هناك (برهان)، حاول أن تبصره بقلبك قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ يوسف: ٢٤.

وحديث النبي صلى الله عليه وسلم المتفق عليه، من الوضوح والبيان في تحميل القلب المسؤولية كاملة ما لا نحتاج معه إلى دليل

آخر، وهو قوله: (...، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)

وحديثه صلى الله عليه وسلم الآخر عن حذيفة رضي الله عنه، كما في مسند الإمام أحمد، الذي قال فيه: «تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير، فأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، وأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، حتى يصير القلب على قلبين أبيض مثل الصفا، لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربد كالكوز مجخيا ـ وأمال كفه ـ لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من هواه».

يقول أحد التابعين مبينا المسؤولية الملقاة على عاتق القلب تجاه واردات الفتن: "قلب المؤمن نقي كالمرآة فلا يأتيه الشيطان بشيء إلا أبصره، فإذا أذنب ذنبا واحدا ألقى الله في قلبه نكتة سوداء، فإذا تاب الله عليه مُحيت، وإذا عاد إلى المعصية ولم يتب تتابعت النكت حتى يسودَّ قلبه، فما أقل ما تنفع فيه موعظة".

وإن للقلوب لكسبا تؤاخذ به، هذا الكسب هو الناتج عن التعمد والإصرار، وليس مجرد اللغو أو السهو أو الخطأ العابر، إنها الجريمة التي يقال عنها (مع سبق الإصرار والترصد)، وهو ما أشارت إليه أكثر من آية في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٢٥﴾ البقرة:

٢٢٥، وقوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ الأحزاب: ٥. إنه الكسب والتعمد الصادر عن قلوب اختارت ذلك الطريق بكل حرية وأصرَّت عليه، وليس مجرد الخطأ واللغو الذي لا حرج فيه ولا مؤاخذة على صاحبه، كما تشير إليه الآيتان السابقتان.

لقد صدق من قال، إن جميع ما في المحيطات السبعة من مياه لا تستطيع أن تغرق سفينة ما لم تنفذ هذه المياه إلى داخلها، وعليه فإن جميع ما في العالم من أفكار سيئة ومؤذية لا يمكنها أن تؤذيك ما لم تدخل هذه الأفكار إلى داخل ذاتك وتنفذ إلى روعك وعقلك وقلبك. إن القلوب التي تسمح للنور بالدخول والخروج هي قلوب سعيدة لأنها في ظلال ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ النور: ٣٥. أما القلوب المظلمة التي لا يدخلها النور فهي تعيش في مجاهيل ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ

يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠ ﴾

النور: ٤٠، وأنتم تدركون الفرق بين الصنفين.

علاقة اللسان بالقلب...

لعلكم قد قرأتم أو سمعتم ما يروى من قصة لقمان الحكيم، عندما أمره مولاه أن يذبح شاة، ويأتيه بأطيب مُضْغَتين فيها، فأتاه (باللسان والقلب)، ثم مكث أياما، وقال له: اذبح شاة، وائتني بأخبث مضغتين فيها، فألقى إليه (اللسان والقلب)، فقال له مولاه: قلت لك حين ذبحت الشاة الأولى: ائتني بأطيب مضغتين فيها، فأتيتني باللسان والقلب، ثم قلت لك حين ذبحت الشاة الثانية: ائتني بأخبث مضغتين فيها، فألقيت إليَّ اللسان والقلب؟ فقال له لقمان: (إنه لا أطيب منها إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خَبُثا).

يقول زهير بن أبي سلمى:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم.

وما قول الغلام الذي تقدم بين يدي عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه ليتحدث نيابة عن قومه، وفي قومه من هو أكبر منه سنا عنا ببعيد، فقد رد بالقول: (إنما المرء بأصغريه، قلبه ولسانه).

وحتى لا يفهم مما سبق أنني أساوي بين القلب واللسان، وأنهما في نفس المكانة والأهمية والأولوية، فإنني أسارع إلى القول: نعم، إن اللسان والقلب في الإنسان مهمان جدا، ولكن القلب أصل واللسان فرع، والقلب قائد، واللسان تابع، والقلب ملك، واللسان جندي ينفذ الأوامر.

ويمكننا أن نستدل على معرفة ما في القلوب بحركة اللسان، فإن القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها، ولسان المرء يغرف لك من قلبه: حلو وحامض، وعذب وأجاج، وحار وبارد، وطيب وخبيث، وحسن وقبيح، وحق وباطل وخير وشر. ولا صحة لمن يحاول أن يوهمك أن قلبه (أبيض)، وأنت ترى (سواد) لسانه، أو أن قلبه (طيب)، وأنت ترى (خبث) لسانه، أو أن قلبه (طاهر)، وأنت ترى (نجاسة)لسانه.

إن اللسان قلم القلب ورسول العقل، والقلوب أوعية، والشفاه أقفالها، والألسن مفاتيحها، فليحفظ كل إنسان مفتاح سره، وغِشُّ القلوب يظهر في فلتات الألسُن، وصفحات الوجوه، والشبهة أخت الحرام، وبكثرة الصمت تكون الهيبة. يقول الأخطل:

لا تعجبنك من خطيب خطبة حتى يكون مع الكلام أصيلا

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا.

يقول أبو حاتم رضي الله عنه، موضحا الفرق بين من يجعل قلبه يدير لسانه، وبين من يلقي الكلام على عواهنه دون تبصر وتدبر: (لسان العاقل يكون وراء قلبه، فإذا أراد القول رجع إلى القلب، فإن كان له قال، وإلا فلا، والجاهل قلبه في طرف لسانه، ما أتى على لسانه تكلم به، وما عَقَلَ دينه من لم يحفظ لسانه).

إن الله خلق للإنسان لسانا واحدا وأذنين حتى يسمع ضعف ما يتكلم. وقدرة المرء على أن يسمع أكثر مما يتكلم دليل على تحليه بقدر من الحكمة. "وإن الإنسان في حالة الغضب يفقد جزءا كبيرا من سيطرته على لسانه". كما يقول الدكتور عبد الكريم بكار.

واللسان إذا صلح -وصلاحه مرتبط بصلاح القلب -تبين ذلك على الأعضاء، وإذا فسد فكذلك، وهذا يشير إلى حالة الترابط والتناغم والانسجام بين أعضاء الجسم وملكَاته، فصلاح اللسان بصلاح القلب، وصلاح الأعضاء بصلاح اللسان والقلب، وكذلك فسادها سواء بسواء، وهو ما تشير إليه آيات الكتاب العزيز، وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم.

فعن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أصبح ابن آدم، فإن أعضاءه تكفر اللسان، تقول: اتق الله فينا، فإنك إن استقمت استقمنا، وأن اعوججت، اعوججنا. والحديث حسن. قال السندي شارحا بعض معاني الحديث: قوله: "إذا أصبح ابن آدم فإن أعضاءه تكفر اللسان": من التكفير، بمعنى الخضوع، أي: إن الأعضاء كلها تطلب منه الاستقامة طلب من يخضع لغيره ليفيض عليه بالمطلوب بواسطة الخضوع لديه، والمراد بالأعضاء الظاهرة، وهذا لا ينافي أن يكون المدار على صلاح القلب، وأن تكون استقامة اللسان به، كما جاء في الصحيح الذي تقدم ذكره

في مقال سابق: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله... ".

وإذا كانت بصمة إصبع الإنسان تكشف هويته، فإن بصمة لسانه تكشف حصاد تربيته. وأحيانا يحلو للمرء ـ كي يبرز محاسن نفسه ـ أن يقع في الآخرين، فيصب على رؤوسهم أوساخ لسانه، مع أن طول اللسان لم يثبت قط حقا، ولم يمحُ باطلا، وإن ظن الناس عكس ذلك. يقول المتنبي

جود الرجال من الأيدي وجودهم من اللسان فلا كانوا ولا الجود.

وقد قال الإمام الأوزاعي منبها ومحذرا: "ما بُلِيَ أحد في دينه بلاء أضر عليه من طلاقة لسانه". وهذا ما نلاحظه من بعض علماء ودعاة زماننا، وهو ما يفهم من كلام الشيخ الموريتاني (الددو) في إحدى تدويناته حين قال: "كان كثير من العلماء يقولون: إن من أكل مرقة السلطان احترق لسانه عن قول الحق".

والإسلام يطالب الإنسان فيما يتعلق بموضوع لسانه، أن يحسن إدارته من خلال عمليتين (الإمساك، والإطلاق)، فيمسكه عندما يتعلق الأمر بالشر واللغو، ويطلقه عندما يتعلق الأمر بالذكر وقول الحق، وفي كلا الأمرين، فإن رقابة الله عليه مستمرة، عن طريق الملائكة، ولا تنفك عنه أبدا حتى آخر نفس له في هذه الدنيا، قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ق: ١٨.

وفي حالة الإطلاق، التي يحسن أن يدير الإنسان بها لسانه، يطالعنا حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت: أخبرني يا رسول اللَّه بأفضل الأعمال وأقربها إلى اللَّه عز وجل، قال: "أن تموت ولسانك رطبٌ بذكر اللَّه". وفي رواية " لا يزال لسانك رطب بذكر الله". رواه الطبراني بإسناد حسن

وفي حال الإمساك، يطالعنا أيضا حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، في الحديث الطويل الذي جاء فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ فقلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه ثم قال: كفّ عليك هذا. فقلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به، فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يُكبُّ الناس في النار على وجوههم- أو قال: على مناخرهم-إلا حصائد ألسنتهم. والحديث حسن صحيح.

القلب... هدف الشيطان في معركته مع الإنسان

طلب مني أحد الإخوة الأعزاء قبل فترة أن أقوم بتأليف كتاب تحت عنوان (الشيطان في حياتنا)، فاعتذرت له في حينه، نظرا لانشغالي بأعمال أخرى، واقترحت عليه أن يشرع هو في إعداد مخطط تفصيلي للكتاب، وتجميع مادته الأولية، وسأكون عونا له في ذلك، فلم أتلق جوابا منه لا بالموافقة ولا بالرفض، ولكن الموضوع بقي حاضرا في ذهني، فرأيت أنه في حال عدم القدرة على إخراج كتاب أن تتم المشاركة ولو بمقال ربما يكون خميرة للكتاب مستقبلا.

وبين يدي هذا المقال أتساءل: لو أن شخصا ما قام بإخراج والديك من بيتهما ورماهما خارج البيت في حالة مزرية، ترى ماذا سيكون موقفك منه؟ أتوقع أن يكون الموقف من هذا الشخص هي العداوة الواضحة الدائمة، وأن المعركة معه هي معركة حياة أو موت، والآن تأمل معي هذه الآية لتدرك طبيعة العداوة التي بدأت في وقت مبكر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ

﴿٢٧﴾ ﴿ الأعراف: ٢٧. أرأيت كيف تخاطبك الآية (أَبَوَيْكُم) حتى لا تنس تلك الأبوّة، ويخيل إليك أنها قديمة، بل هي حاضرة الآن (أَبَوَيْكُم).

إذن، فعداوة الشيطان للإنسان قديمة وليست وليدة اليوم، والتوجيهات القرآنية والنبوية تحث الإنسان على عدم تجاهل هذه العداوة، أو الاستهانة بها، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ فاطر: ٦، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ يس: ٦٠، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ البقرة: ٢٠٨، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ الإسراء: ٥٣، وعشرات غيرها من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، توضح طبيعة هذه العداوة، وترشد إلى سبل المواجهة فيها، وما قد يترتب عليها في حال النجاح أو الفشل.

إن تناسي هذه العداوة والاستهانة بها، والدخول في معارك جانبية بعيدا عنها، قد مكّن هذا العدو من التقاط أنفاسه، واستغلال

نقاط ضعف الإنسان، وعلى رأس نقاط ضعفه (الغفلة)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ طه: ١١٥، ليكون الشيطان أشد ضراوة في الهجوم، ورغم يأسه من عدم إمكانية أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، كما جاء في حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، ولكنه لا يتوقف عن التحريش بينهم. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ الإسراء: ٥٣.

والشيطان على دراية بنقاط القوة والضعف عند الإنسان، ولهذا فهو يحاول تدمير دفاعاته وتحصيناته، حتى يتمكن من التسلل إلى مركز القيادة فيه، ومركز القيادة هنا هو القلب، فإذا تمكن منه استطاع أن يدير المعركة على الوجه الذي يريد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ الأنعام: ٤٣ فالقلب كالحصن، والشيطان عدو يريد أن يقتحم الحصن ويدخله، فيملكه ويستولي عليه. ولا يقدر الإنسان على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله، ومواضع ثلمه، فمن أبوابه العظيمة: الغضب والشهوة، فالغضب غول العقل، وإذا ضعف جند العقل، هجم جند الشيطان،

فأفسد القصر ومن فيه، ويمكن إجمال المداخل الخطيرة التي يأتي الشيطان من قبلها إلى الإنسان في ثلاث مداخل هي: (الشهوة، والغضب، والهوى).

وتأمّل معي هذه القطعة التحليلية فائقة الجمال التي أوردها الإمام ابن القيم في كتابه القيم (الوابل الصيّب من الكلم الطيب)، وهو يتحدث عن الخطط الدقيقة التي يحيكها الشيطان للإنسان في كل أحواله تشددا أو تكاسلا، إفراطا أو تفريطا، وهذا يدل على علو كعب ابن القيم في معرفة خطط الشيطان ومكره، وتلبيسه على المخدوعين المخذولين من بني آدم، وأترككم مع كلامه المنقول من كتابه بالنص:

يقول ابن القيم: (فلا يبالي (يقصد الشيطان) بما ظفر من العبد من الخطيئتين (يقصد الإفراط أو التفريط)، فإنه يأتي إلى قلب العبد فيستامه (بمعنى يعرف رغبته وتوجهه)، فإن وجد فيه فتورا وتوانيا وترخيصا أخذه من هذه الخطة، فثبطه وأقعده، وضربه بالكسل والتواني والفتور، وفتح له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك، حتى ربما ترك العبدُ المأمورَ جملة، وإن وجد عنده حذرا وجدا وتشميرا ونهضة، وأيس أن يأخذه من هذا الباب (يقصد من باب التفريط والتكاسل)، أمره بالاجتهاد الزائد، وسوّل له: إن هذا لا يكفيك وهمتك فوق هذا، وينبغي لك أن تزيد على العاملين، وأن لا ترقد إذا رقدوا، ولا تفطر إذا

أفطروا، وأن لا تفتر إذا فتروا، وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرات فاغسل أنت سبعا، وإذا توضأ أحدهم للصلاة فاغتسل أنت لها، ونحو ذلك من الإفراط والتعدي، فيحمله على الغلو و(المجاوزة) وتعدي الصراط المستقيم، كما يحمل الأول على (التقصير) دونه، وأن لا يقربه، ومقصوده من الرجلين إخراجهما عن الصراط المستقيم، (هذا بأن لا يقربه ولا يدنو منه) ، و(هذا بأن يجاوزه ويتعداه). وقد فتن بهذا أكثر الخلق، ولا ينجي من ذلك إلا علم راسخ وإيمان وقوة على محاربته ولزوم الوسط، والله المستعان).

وعلى مدار التاريخ كان الوعي بالشيطان بوصفه ذاتا شريرة وسيئة أوضح من الوعي بوسواس النفس حيث أنه يشكل ذاتا منفصلة ومبلوَرة، وليست الوساوس كذلك.

وحين هبط أبونا آدم وأمنا حواء من الجنة لم يهبطا وحدهما، وإنما هبط معهما إبليس أيضاً، وكان في ذلك إشارة واضحة إلى الجدلية التي ستسود في هذه الحياة. جدلية الصراع بين الحق والباطل والخير والشر، وما يجوز وما لا يجوز. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في مواضع عدة، منها قوله ـ سبحانه ـ ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ البقرة: ٣٦.

وفي المعارك الكبيرة والمصيرية، يجب على الإنسان أن يعرف عدوه، من باب (اعرف عدوك)، لأن هذا يسهّل على الإنسان إدارة المعركة بالطريقة التي تكسبه السبق والتفوق، وتسلب عدوه كل ميزة يمكن أن يستفيد منها في ترجيح موازين القوى لصالحه، وقد منحنا القرآن الكريم والسنة النبوية خريطة واضحة بطبيعة هذا العدو وتاريخ العداوة معه، ونقاط قوته ونقاط ضعفه، وأعطانا من الأسلحة ما نستطيع أن نصدَّ به هجمات هذا العدو، ونفسد عليها كل خططه، ولهذا فإنه لا حُجّة لمن يتغلب عليهم الشيطان بعد هذا البيان، وإذا كان هناك من لوم فليلوم الناس أنفسهم، لأنهم تغافلوا وتناسوا شروط الانتصار في هذه المعركة الحاسمة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ إبراهيم: ٢٢.

ودعونا نستعرض بعضا من (المهمات الشيطانية) التي يمكن أن يقوم بها الشيطان للإيقاع بالإنسان، فهو الذي يَعِدُ الإنسان بالفقر

ليتوقف عن العطاء، ويأمره بالفحشاء والمنكر ليسقطه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨ ﴾ البقرة: ٢٦٨، والشيطان يغذي لدى الإنسان الخوف ليجبن عن قول الحق ونصرته، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥ ﴾ آل عمران: ١٧٥، والشيطان أكبر بائع للوهم والأماني الكاذبة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠ ﴾ النساء: ١٢٠، والشيطان يسعى للإيقاع بين بني الإنسان، ويزرع بينهم العداوة والبغضاء، ليبعدهم عن ذكر الله وطاعته من خلال وقوعهم في المعاصي، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١ ﴾ المائدة: ٩١، والشيطان لا يتورع عن قلب الحقائق وتزوير الوقائع وتزيين القبيح، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ

ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ العنكبوت: ٣٨، والشيطان يحبب للإنسان النجوى، ليزرع في نفسه اليأس، ويدخل الحزن على قلبه ليزعزع ثقته بربه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـٔٗا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ المجادلة: ١٠، والشيطان لا يهدأ له بال حتى يضل الناس، ويستهويهم ليغيروا خلق الله ويتلاعبوا بمخلوقاته، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ ﴾ النساء: ١١٩، وعندما يستحوذ الشيطان على الإنسان تنقطع علاقته بالله، ويتوقف لسانه عن ذكره جل جلاله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ المجادلة: ١٩، والآيات في هذا المجال كثيرة ويصعب سردها في هذه المساحة الضيقة، والمهمات الشيطانية التي يقوم بها الشيطان لإسقاط الإنسان والاستحواذ عليه أكثر من أن تحصر.

لقد أقسم الشيطان بين يدي ذي العزة والجلال، أنه سيعمل جاهدا، وبكل ما أوتي من قوة وحيلة، على إضلال بني آدم واستمالتهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ص: ٨٢، ولشدة حقده على آدم وذريته، نظرا لتفضيل الله آدم عليه، وانتقاما من آدم وذريته، أعلن الحرب الشاملة والحصار المطبق على بني البشر، بين يدي رب العالمين، فقال في حسم وإصرار: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ الأعراف: ١٧، إنها العداوة الواضحة، والحرب الشاملة، والحصار الخانق، ولا ملجأ للإنسان من الله إلا إليه.

وفي إمكاننا ان نقول: إن الشيطان يستخدم في عمله عين الأسلوب الذي يستخدمه (السوس) الذي ينخر في أسنان البشر، حسب وصف الدكتور عبد الكريم بكار، فالسوس يفضل العمل في (مقاتل الأسنان) وهي المواضع التي لا يصل إليها السواك، ولا تصل إليها الفرشاة.

وهكذا الشيطان يلعب على نقاط ضعفنا وغرائزنا، ويستغل معاناتنا والثغرات الموجودة في حياتنا كي يحصل على ما يحب الوصول إليه. إن طموحاته واسعة وحركته دائبة وشاملة، والأبواب التي يدخل منها علينا تفوق الحصر والعد.

ورغم هذه العنجهية والغرور الشيطاني، إلا أن الشيطان أضعف مما نتصور، إذا أحسنَّا إدارة المعركة معه على نور من الله، فكيد الشيطان ضعيف، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦ ﴾ النساء: ٧٦، وأن بإمكان الإنسان مواجهته والتغلب عليه، بل وهزيمته شر هزيمة، شريطة أن يتسلح بالأسلحة التي أمره الله بالتسلح بها، وأهمها الالتجاء إلى الله والاستعاذة به من الشيطان الرجيم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠ ﴾ الأعراف: ٢٠٠ ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ ﴾ الأعراف: ٢٠١، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨ ﴾ النحل: ٩٨، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ ﴾ المؤمنون: ٩٧، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ

بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ ﴿٢١﴾ ﴾ النور: ٢١، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ ﴾ الفلق: ١، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ ﴾ الناس: ١.

إن التدين الحق ينشئ لدى صاحبه (عضلة أخلاقية) اعتدنا على تسميتها (بالضمير) أو (الوازع الداخلي). وهذه العضلة هي التي تصارع الشيطان، وتقدم للوعي الشخصي الكثير من التحذير من خطورة الانسياق وراء وساوس الشيطان وإغراءاته. ولهذا فأن الشيطان يبدي الكثير من الارتياح، ويحقق الكثير من النجاح في مهماته الشريرة حين يخفت صوت الضمير، أو يمنحه صاحبه إجازة مفتوحة. وهذا يعني أن على المصلحين أن يتعلموا كيف يوفرون الشروط والظروف التي توقظ الضمائر، وتؤسس لدرجة عالية من الحساسية ضد الخطأ والشر والمنكر.

والشيطان يأتي للإنسان من الباب الذي فتحته نفسُه، هكذا عبَّر الأستاذ عبد الملك شمسان عن حقيقة التواصل الذي قد يحدث بين الإنسان والشيطان، والذي يمكن تشبيهه (أي التواصل) بشخص يطرق بابا مغلقا، فصاحب البيت عندما يسمع الطرق على الباب، يسأل: من الطارق؟ قبل أن يفتح الباب، فإذا اطمأنَّ إلى الطارق فتح له الباب ورحّب به، وإن خشي الأذى منه رفض فتح الباب، ولسان حاله يقول (ممنوع الدخول لغير العاملين)، والشيطان عندما يطرق أبواب القلوب لا يأتي بصورته القبيحة بل إنه ليأتي في صورة الناصح

أو الواعظ أو المرشد أو المنقذ أو الصديق، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ الأعراف: ٢١، ٢٢، وقليلون هم من يكتشفون شخصيته الماكرة المخادعة على حقيقتها، وكثيرون هم من يقعون ضحية تدليسه وتلبيسه.

وتأمل معي هذه الآيات التي تلفت النظر إلى طبيعة التزيين والبهرجة التي يقوم بها الشيطان للدفع بالإنسان إلى المعصية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ فاطر: ٨، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ التوبة: ٣٧، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ

شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ الأنفال: ٤٨، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ فصلت: ٢٥، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ الحجر: ٣. كله تزيين لأعمال. أتساءل وأنا أتأمل في هذه الآيات: هل يأتي الشيطان للإنسان إلا من الباب الذي فتحته نفسُه!؟

كأنّ هذا هو الغالب، وكأنّ هذا هو سر النهي عن استعذاب حديث النفس بالمعصية، لأن إجالة المعصية على الخاطر واستماع الإنسان لحديث نفسه فيها، من شأنه أن يفتح الباب للشيطان، فيجتمع عليه النفسُ الأمارة بالسوء والشيطان الأمّارُ بالمنكر والبغي.

ووسوسة الشيطان تتم بكلام كاذب لتزيين المعصية، والشيطان لا يهمه أي معصية ارتكبت، وإنما يريدك عاصيا على أي وجه، ولكن النفس عندما توسوس لك بالمعصية، فإنها تريد شيئا بذاته، وهذا هو الفرق بين وسوسة الشيطان، ووسوسة النفس، وفق تعبير الشيخ محمد متولي الشعراوي، فالشيطان يريدك عاصيا بأي ذنب، فإن امتنعت في ناحية أتاك من ناحية أخرى. ومنهج الشيطان في الإغواء والإغراء، يحتاج إلى خلوة، إلى مكان لا يراك فيه أحد، ولا يسمعك

فيه أحد، لأن العلن في منهج الشيطان يكون فضيحة، ولأن المعصية عندما تصبح علنية يصبح الشيطان لا عمل له، ويتحول من يقومون بالمعصية العلنية إلى شياطين بلا مراء.

وللدلالة على ما ذكرناه آنفا يمكننا أن نورد الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: (ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما)، حيث أن الخلوة هي مظنة الوقوع في المعصية، وكم هي عظيمة الجرم ذنوب الخلوات، وقد علّق الدكتور عبد الوهاب المسيري على هذا الحديث في (رحلته الفكرية) بإشارة ذات مغزي، في معرض مقارنته بين المعاصي التي يحضر فيها الشيطان في مجتمعاتنا وغيابه في المجتمعات الغربية فيقول: "عندنا في مجتمعاتنا إن اجتمع رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما، المشكلة في الغرب أن الشيطان لا يحضر". بمعنى أنه لم تعد له وظيفة، فقد قام بها غيره، ويمكنه أن يأخذ إجازة طويلة، لعدم الحاجة إلى إغوائه وإغرائه.

وليس من حق أي إنسان أن يدعي لنفسه الفضيلة، إلا إذا عرضت له الرذيلة فقاومها وانتصر عليها، ومن يدري ربما كانت الحكمة في وجود الشيطان بغوايته أن تظهر الفضيلة في الإنسان الفاضل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ

رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ يوسف: ٢٤.

إن للشيطان منافذ كثيرة يدخل منها، فقد يدخل ويأتي داخل (هالة من نور). كما يقول القديس أوجستين. وكثيرا ما يأتي الشيطان من خلال العقل والحكمة والورع، إذا ما سُدّت أمامه باقي السبل. فيا لله كم تخدع المظاهر! وكم يتقمص الشيطان وجها وسيما وديعا.

إن هناك من النصوص ما يدل صراحة على أن البشر من خلال أخطائهم الشخصية ومن خلال ما يظهرونه من قابلية للغواية والانقياد يقدمون الأرضية التي يقف عليها الشيطان وقت وسوسته لهم. إنهم يوفرون له رأس الجسر الذي سوف يعبر عليه متسللاً إلى أعماقهم وأعمالهم. حسب وصف الدكتور عبد الكريم بكار، وهذا واضح في عدد من الآيات القرآنية، ومنها قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾ ﴾ آل عمران: ١٥٥.

وتأمل قوله تعالى: (ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ)، والتي يأتي بعدها مباشرة قوله تعالى (بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ)، فالإنسان هو من جنى على نفسه،

وأورد نفسه المهالك، وفتح لعدوه باب الحصن، وكأنَّ الآية تشير إلى المثل المعروف (يداك أوكتا وفوك نفخ).

وقد روى مسلم في صحيحه، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأعرابي جاءه فقال: إني حلمت (رأى رؤيا في المنام) بأن رأسي قطع، فأنا أتبعه، فزجره النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: لا تخبر بتلاعب الشيطان بك في المنام.

وأورد الدكتور علي الوردي في إحدى كتبه طرفة ذات دلالة على إمكانية وقدرة الشيطان على قلب الحقائق والتلاعب بالإنسان، مفاد هذه الطرفة أن أحدهم رأى إبليس في المنام في صورة حسنة، فاندهش عندما شاهده بهذه الصورة، عكس ما يرسمه المصورون له، فسأله في ذلك، فأجاب الملعون: ماذا أصنع والقلم بيد أعدائي!

إن الشيطان يريد أن يتسلى على حسابنا أحيانا، أن يرى كيف ندخل في جحورنا الصغيرة، عند أدنى ضربة جرس. كما يقول مالك بن نبي. والإنسان مع الشيطان ليس مغلوبا على أمره، وإنما هو مخدوع كبير أو مستغفل غرير! إن الشيطان يملك جهاز إذاعة طويلة الأمواج أو قصيرتها, والإنسان يستطيع أن يسمع وألا يسمع، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ الزخرف: ٣٦، بمعنى أن لدى الإنسان المقدرة على ضبط قلبه ونفسه وعقله على الموجة التي يرسلها الشيطان، وبإمكانه أن يتجاوزها إلى موجات

أخرى يكون من ورائها كل خير، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ الأعراف: ٢٠١.

وهذا يعني أن على الناس أن يوجهوا اللوم لأنفسهم عوضاً عن لوم إبليس، وأن يحموا أنفسهم من شروره من خلال المجاهدة والاستقامة، وأن يجعلوا من ملازمة الآداب والسنن خط الدفاع الأول عن الفرائض والواجبات، كما أن عليهم أن يجعلوا بينهم وبين الوقوع في الكبائر والمعاصي واقياً منيعاً، يتمثل في تجنب الشبهات والمكروهات، وما هو موضع خلاف ونزاع، حيث أن الشيطان لا يحاول الوسوسة لشخص يقوم الليل بترك صلاة الفريضة، كما لا يوسوس لمن امتنع عن عمل شيء مختلف في جوازه بعمل شيء متفق على حرمته.

إن إبليس يستغل أوهام الناس كما يستغل غرورهم وطموحاتهم غير المحدودة من أجل التحريش بينهم، وإفساد علاقاتهم، وعليهم أن يفطنوا إلى ذلك. واعتقد (والكلام للدكتور عبد الكريم بكار) أن أفضل ما ننتقم به من إبليس هو أن نقتبس منه روح المثابرة، ولكن في عمل الخير واستخدام المعرفة وفي مقاومة الشر.

وإذا كان الرسول . صلى الله عليه وسلم . لا يستطيع إدخال الهدى في قلوب الناس، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ

﴿ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦ ﴾ القصص: ٥٦، فإن الشيطان أيضا لا يستطيع إدخال الضلال في قلوبهم. إن مقدرته محصورة في الدعوة إلى الضلال وتزيينه.

إن آدم وزوجه عليهما السلام اعترفا بكل وضوح، ومن غير أن يحاولا (اللف والدوران)، اعترفا بالظلم الذي وقع منهما، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣ ﴾ الأعراف: ٢٣، وطلبا المغفرة والرحمة وإلا فإن الخسارة ستقع عليهما، ومع أن القرآن يذكر أن الشيطان قام بدور كبير في الإغراء ليأكلا من الشجرة وأنه سيمنحهما (الخلد وملك لا يبلى)، ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١ ﴾ الأعراف: ٢١، فإن آدم وزوجه لم يذكرا أن الشيطان أغراهما، بل تحملا المسؤولية دون اتهام أحد، بل ربما شعرا أن محاولة اتهام الشيطان بالإغراء والإغواء يدينهما مرتين، بينما الاعتراف بالخطأ سيمكِّن من تصحيح الخطأ ولا يُعَقَّدُ الحل، "ولعل آدم استحق الاستخلاف في الأرض لأنه قادر على الاعتراف بالخطأ وتصحيح الخطأ". كما ذكر ذلك المفكر جودت سعيد. ولذا فإن علينا أن نعود بالسؤال إلى منطقة (تحصين الذات) من

الشيطان، لا محاولة (منع الشيطان) من أن يقوم بعمله لو صح التشبيه.

يقول ابن القيم في كتابه مدارج السالكين: "ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان إما إلى تفريط وإضاعة وإما إلى إفراط وغلو". ولذا فإن على الإنسان ألا يكون عدوا لإبليس في العلن وصديقا له في السر.

والشيطان أيضاً يَتَحَضَّرُ، ويترقى مع ترِّقي العصر، فيبتكر أساليب شيطانية راقية مناسبة للقرن الواحد العشرين." وكل ما يحتاج إليه الشيطان لكي يحقق الانتصار هو أن يجلس الأخيار دون أن يفعلوا شيئا". حسب تعبير ستيفن كوفي

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم). وفي الحديث إشارة إلى استمرار محاولة الشيطان لاختراق حصون الإنسان، من خلال الوسوسة والتزيين والإغراء والإغواء.

وقد حكى لنا القرآن الكريم جهود إبليس في التنصل من المسؤولية الملقاة على عاتقه حين قال: ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ ق: ٢٧. ولهذا قال أحدهم: (إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها).

جنَّة القلب ♥ ♥ ♥

مرت امرأة من جانب طفل حزين ومكسور الخاطر، وبيده عود، يرسم به على الأرض، فأشفقت عليه ورق قلبها لحاله، وسألته: ماذا تفعل يا صغيري هنا؟ فالتفت إليها، وقال في عفوية: أرسم الجنة، وأقسمها إلى أجزاء، فابتسمت، وقالت له: هل يمكن أن آخذ قطعة منها؟ وكم ثمنها؟ نظر إليها الطفل وقال: نعم أحتاج فقط إلى خمسين ريالا. أعطت المرأة الطفل ما طلبه منها، وأعطته بعض الحلوى وذهبت، وفي ليلتها رأت في المنام أنها في الجنة، وفي الصباح قصت الرؤيا لزوجها، وما جرى لها مع الطفل الحزين، فقام الزوج وذهب إلى الطفل، الذي كان في نفس المكان الذي كان فيه بالأمس، وفي نيته أن يفعل مثل ما فعلته زوجته بالأمس، وبعد أن وصل إلى الطفل، سأله قائلا له: أريد أن تعطيني قطعة من الجنة، كم ثمنها؟ قال الطفل: أنا لا أبيع! قال الرجل: بالأمس بعت قطعة لزوجتي بخمسين ريالا، قال الطفل: إن زوجتك لم تكن تطلب الجنة بالخمسين ريالا، بل كانت تجبر بخاطري، أما أنت فتطلب الجنة فحسب، والجنة ليس لها ثمن محدد، لأن دخولها يمر عبر أعمال وعطاءات كثيرة منها (جبر القلوب والخواطر).

إذا أردت أن تعرف إشراقات البراءة، ففتش عنها في وجوه الأطفال، وإذا أردت أن تعرف صفاء الفطرة فابحث عنها في ملامح

الأطفال، وإذا أردت أن تكتشف نقاء السرائر فلن تجد لها محلا إلا في قلوب الأطفال، أو من يملكون قلوبا كقلوبهم، وإذا أردت أن تتعرف على بعض تجليات روعة الجنة فتأمل البراءة والفطرة والنقاء في حياة الأطفال، فالأطفال هم بعض (طيور الجنة) التي تعيش بيننا.

قد تكون الأقصوصة التي بدأنا بها المقال رمزية، ولكنها معبّرة، ودالة على أن طريق الجنة يمر عبر إدخال السرور على القلوب، وتفريج الهموم، وتقديم أعمال وعطاءات هي من فيوضات الجنة قبل الوصول إليها، ولذلك لا غرابة أن يكون كافل اليتيم جار النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة، والحديث في صحيح البخاري: (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما).

إن أفضل مكان نحلم بالعيش فيه هو الجنة، حيث كل الخيارات متاحة وغير محدودة، مما يعني عدم الاحتياج للقيام بأي موازنات، كما هو حالنا في الدنيا، وإن كانت الحياة الطيبة في الدنيا إذا أخلص الإنسان العبودية لله وقام بحقها خير قيام، مُقدِّمة لرضوان الله وجنته في الآخرة: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ ﴾ طه: ١، ٢ ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩٧ ﴾ النحل: ٩٧.

إن نزول الإنسان من الجنة كان بسبب خلل أصاب جهازه التربوي عند الاختبار (مخالفة سلوكية) رغم قوة التكوين المعرفي، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾البقرة: ٣١، وغاية نزوله إلى الأرض، هي إعادة تأهيله، وتصفية جهاز القيم عنده، عن طريق التربية، وغسل درن المخالفة بالهدى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾طه: ١٢٣، ليعود مَن تفوق في اختبار إعادة التربية إلى مكانه الأصلي الطبيعي (الجنة)، وقد صفت قيمه، وفق تعبير الدكتور خالد الصمدي

والقرآن الكريم له أساليبه المتميزة في عرض مضامينه وأداء وظائفه، ذلك أنه يخاطب ويعالج الكيان البشري بكل مكوناته وبكل متطلباته دفعة واحدة، ولذلك تمتزج فيه ـ في الموضع الواحد ـ عناصر متعددة للخطاب، أو عناصر متعددة للمعالجة والعلاج، فتجد أسس العقيدة مع جزئيات التشريع، وتجد القصص مع المواعظ، وتجد الحجاج المنطقي مع ذكر الجنة والنار، وتجد مشاهد الطبيعة مع تكاليف العبادة، مما يوحي بأن الإنسان ليس ذا بعد واحد بل له أبعاد

متعددة، ولكنها متناغمة متكاملة يقوي بعضها بعضا، ويفضي بعضها إلى بعض، وأن عيش الإنسان في بُعد واحد يعد نقصا في إنسانيته وعبوديته لله، الذي يريده بكل أبعاده قلبا وقالبا، جسدا وعقلا وقلبا وروحا.

ولذا لم تقف الحفاوة الربانية بهذا الإنسان عند الإعلان الإلهي الجليل بإيجاده، ولا عند تسمية هذا المخلوق خليفة، ولا عند تصويره وتسويته بيد العناية الربانية، ولا عند النفخ فيه من روح الله تبارك وتعالى، ولا عند إسجاد الملائكة له وهم عباد بررة مكرمون، لم تقف الحفاوة الإلهية بالإنسان عند هذا، بل امتدت وسمت إلى حد إسكانه الجنة وإطلاق يده وحريته فيها، دون أن يكون قد فعل ما يستحق به شيئًا من هذا كله، كما يشير إلى ذلك الدكتور أحمد الريسوني، وفي ذلك ما فيه من صور التكريم والشريف لهذا الإنسان.

وقد ذكر الله إخراج آدم وحواء من الجنة في نص قصير في القرآن الكريم، وذلك للدلالة على أن الإسلام أقل اهتماما بالماضي الفائت، وفقدان ما كان فيه، حتى وإن كان ذلك هو (الجنة) مقارنة باهتمامه بالحاضر والمستقبل، واستئناف الجهد لكي يعود للجنة التي أخرج منها، بدلا من البكاء على اللبن المسكوب.

إن الحياة للناجحين كالجنة، أبوابها عديدة، وفضاؤها فسيح، ولا تزال تستوعب الوافدين إليها، وتدفعهم لأعلى المقامات، كلما

أنجزوا وواصلوا (اقرأ وارتق). وهي للفاشلين كالنار تحطمهم، وتذيقهم ألوان العذاب، وترحب بالمزيد منهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ ق: ٣٠، يستوون فيها هم والجماد قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ البقرة: ٢٤.

والأعمال الصالحة التي تدخل الإنسان الجنة، هي نفسها ما قد يدخله النار، إذا فعلها لغير الله رياء وسمعة. ويمكن أن تكون كل تخصصات الحياة النافعة طريقا إلى الجنة، بل ربما فاقت بعض صور العبادات المندوبة، فالاقتصادي الذي يعمل على إخراج أمته من ذل الفقر، والسياسي الذي يسعى جاهدا لإخراج أمته من رهق التبعية، والطبيب الذي يعكف على استخراج دواء لعلل أمته والإنسانية جمعاء، والمعلم الذي يضع بذور الاستقلال والولاء والانتماء للدين والوطن في أذهان تلاميذه، والجندي الذي يدافع عن دينه ووطنه، ويحفظ أمن أمته واستقرارها، كل هؤلاء وغيرهم كثير، يسيرون في الطريق الموصل إلى الجنة، إذا صدقت النيات، بل ربما يكون عملهم هذا أكثر أجرًا من عمل العابد الصائم القائم؛ حيث أن الأخير ينفع نفسه فقط، بينما السياسي النظيف العاقل المخلص، والاقتصادي الفطن، والطبيب الماهر، والمعلم الكفء، والجندي المخلص سينفع

كل البلد، بل قد يمتد أثره خارج بلده، ويتجاوز عمره إلى ما بعد عمره الدنيوي القصير، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ يس: ١٢

ويُروى عن أحد الأثرياء، أنه كان يبحث عما يريح نفسه ويُطمئنْ قلبه، ولكنه لم يتمكن من ذلك رغم امتلاكه للكثير من متع الحياة، وقد عرض عليه ذات يوم صديق له أن يساهم في مشروع شراء كراسي متحركة للمعاقين، فوافق على ذلك، وحضر حفل توزيعها، ورأى مدى الفرحة التي غمرت وجوه الأطفال الذين وزعت عليهم، وكيف صاروا يتحركون في كل اتجاه بتلك الكراسي، وهم يضحكون ملء قلوبهم.

لكن ما أدخل السعادة الحقيقية على قلب هذا الثري هو تمسك أحد الأطفال بثوبه عندما همّ بالمغادرة، وقد حاول أن يحرر ثوبه من يد الطفل برفق، لكن الطفل ظل ممسكاً به، بينما عيناه تركزان بشدة في وجه هذا الثري، فانحنى الثري وسأل الطفل: هل تريد شيئا آخر مني قبل أن أذهب؟ فكان الرد مفاجئا لهذا الثري ولمن حوله، وكان لهذا الرد أثر بالغ في حياة هذا الرجل، لقد قال له الطفل في خشوع: (أريد أن أتذكر ملامح وجهك، حتى أعرفك حين ألقاك في الجنة، وأشكرك مرة أخرى أمام ربي).

إن مصير أي إنسان في الدار الآخرة، يوم الحساب والجزاء واحد، إما الجنة التي نأمل أن نكون من أهلها إن شاء الله، وإما النار أعاذنا الله وإياكم من شرها، فالإنسان يرى لمصيره يوم القيامة مستقبلين: مستقبل في الجنة يرجوه، ويدعوه للتزود بما يوصله لها، ومستقبل في النار يستعيذ بالله منه، ويحثه على الابتعاد عن كل ما يساهم في احتمال وقوعه فيه، وإيمانه بهذين المستقبلين لا يؤثر على وحدانية المستقبل الذي سيحصل بالفعل، ولا يلغي إيمانه بها، بقدر ما يحفزه للعمل على الإمساك بسبيل أزهى وأطيب صورتيه المحتملتين. **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾ البقرة: ٢٠١.

ولو كان الإسلام مجرد نظام عبادي وروحي وشعائري، لا علاقة له بالحركة الاجتماعية، لأصبح نيل الجنة أمرا سهلا، يتأتَّى لكل قاعد، فحسبه أن يلزم داره، ويعتزل الناس، ولا يخرج إلا لأداء الصلاة وبقية أركان الإسلام. ولكن الإسلام والانتماء إليه أهم من ذلك بكثير، إذ أنه مثلما يفرض على المسلم الشعائر العبادية، فهو يفرض عليه تحركا اجتماعيا، ويصوغ له دورا رائدا وطليعيا فوق مسرح الحياة النابضة بالحركة والتبدل، ومن هنا كانت فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر والشورى، وغيرها من القربات الاجتماعية، التي توصل الإنسان إلى جنة الدنيا، التي هي إحدى تجليات جنة المأوى.

والظاهر أن المسلمين في عصورهم المتأخرة لم يفهموا كنه التجارة مع الله، فقد صار حالهم كحال الشعراء الذين يؤثرون الاستجداء من أصحاب الجاه والسلطان بدلا من العمل، وهذا الحال يشبه حال بعض المتدينين الذين أخذوا يطمعون في الجنة عن طريق الدعاء والعبادة الشعائرية فقط، لا عن طريق العمل والإنفاق، ولجهلهم يحسبون أنهم سيفوزون بجنة عرضها السماوات والأرض، ولا يدركون أن مثل هذا الظن سيرديهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ الكهف: ١٠٤.

ورمضان - الذي نعيش في عشره الأواخر - ليس شهر عبادة من أجل نجاة الإنسان وحده، يقيس فيها المؤمن نصيبه من الجنة بالشبر والذراع ويعدُّ الحسنات، بل هو شهر من شهور الأمة كي تتراحم، لا بصدقة خفية أو أموال زكية، بل بتحوّل خلقي وسلوكي شامل وكامل، تتربى عليه الأمة في تلك الأيام (أيام شهر رمضان)، مثلما تتربى على كظم الغيظ وترك الجدل في الحج، لا لتخرج من تلك الأزمنة إلى غيرها وقد تخلَّقت أياما معدودة، بل لتستصحب الرحمة معها في بقية الأزمنة والأمكنة، فترتقي عبادة بعد عبادة، وعاما بعد عام، حسب تعبير د. هبة رؤف عزت

والعبد السائر إلى الله، بقلب يهفو لجنة ربه، يدعو الله أن ينعم عليه برحمة في العقل، تمنحه الحكمة في الفكر، ويتعامل بها مع الخلق، ورحمة في الطبع، يخالق الناس بها بخلق حسن، ورحمة في القلب تفجر طاقات الحنان لديه، ليحتضن أطفاله وينقذهم من الضلال، ورحمة في الأداء يتقن بها عمله، ويكسب بها رحمة الخالق ليؤكد أنها فضل من الله ومنة، تدخله الجنة التي يرجوها بنيته الصادقة لله.

وفي الثقافة اليابانية، هناك ما يعزز معنى أن تصبح الجنة شعورا يعيش به الإنسان في الدنيا ويفيضه على الآخرين، فقد أورد الدكتور ياسر العيتي في كتابه (الذكاء العاطفي)، أن جنديا من جنود الساموراي سأل أستاذه عن الجنة والنار فأجابه الأستاذ: أنت إنسان تافه لا تستحق أن أتحدث إليك، فغضب الجندي لذلك غضبا شديدا واستل سيفه وهمَّ بقتل أستاذه، فقال له الأستاذ: هذه هي النار، فعلم الجندي أن أستاذه يريد أن يلقِّنه درسا، فهدأ وأعاد السيف إلى غمده، فقال له الأستاذ: وهذه هي الجنة. إنه فهم ناتج عن ثقافة، وعلينا كمسلمين أن نستفيد من خبرة الشعوب وتجاربهم، خاصة إذا كانت تنسجم مع روح ديننا، الذي يجعل (الجنة تحت أقدام الأمهات)، كما في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم.

إن العاقل لا يرى لنفسه ثمنا إلا الجنة، كما يقول الإمام ابن حزم الأندلسي، ولهذا فعلى الإنسان أن يسأل الله النعمة؛ فإن وهبه الله إياها، فليسأله تمامَها! وتمامُها أن تكون سبباً في دخوله الجنّة. وإذا كان طريق الجنة ممتعا إلى هذا الحد، فكيف تكون هي في ذاتها. "فمن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة. رواه مسلم.

القرآن والقلب...

قال أبو محمد إقبال لولده محمد إقبال الشاعر والمفكر الإسلامي الكبير في صغره: يا بني إقرأ القرآن وكأنه أنزل عليك. فقال محمد إقبال: ومنذ ذلك الحين بدأت أتفهَّم القرآن وأقبل على دواخل كلماته ومعانيه، فكان من أنواره ما اقتبست، ومن بحره ما نظمت.

إن للقرآن قوة تأثير ضخمة على القلوب لا يناظره فيها مصدر آخر، وكيف لا، وهو كلام رب العالمين الذي لو استقبلته الجبال الرواسي لتصدعت واندكت، من قوة تأثيره عليها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الحشر: ٢١. والقرآن بلا جدال قرآن القلب، وعلى القلب أنزل، وتأمل آيات القرآن وهي تتحدث عن نزوله على أطهر قلب، وهو قلب حبيب القلوب صلى الله عليه وسلم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ الشعراء: ١٩٣، ١٩٤، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ البقرة: ٩٧، كما أنّ نزوله كان لهدف

التثبيت للقلوب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ هود: ١٢٠، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ الفرقان: ٣٢.

ويحصل تأثر القلب بالقرآن بأربعة أمور:

الأول: المؤثر (القرآن) يسمعه الإنسان أو يقرؤه.

الثاني: المحل القابل، وهو (القلب الحي) الذي يعقل عن الله.

الثالث: وجود الشرط، وهو (الإصغاء).

الرابع: انتفاء المانع، وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب.

فإذا تمت هذه الشروط، حصل الأثر، وهو الانتفاع والتذكر والاستقامة. كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ ق: ٣٧.

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ) هذا هو المؤثر.

(لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ) هذا هو المحل.

(أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ) وهذا هو الشرط وهو الإصغاء.

(وَهُوَ شَهِيدٌ) وهذا هو انتفاء المانع.

خذ مثلاً من حياتنا: عندما تقرأ القرآن تشترك في تلاوته أكثر من حاسة، فالعين (تنظر) إلى الآيات، واللسان (يرتلها)، والأذن (تصغي) إليها، والعقل (يتدبرها)، والقلب (يخشع) لها، ترى كم ستكون الإنتاجية في هكذا عمل، وكم مقدار الأجر إذا صدقت النيات؟

إن بين القرآن وبين القلوب المؤمنة صلة قوية، يفتح أمامها خزائن أسراره، ولذا فإن على قارئ القرآن الكريم أن يتلو الآيات مرارا، مستحضرًا قلبه، محاولاً الوصول إلى معناها قبل الرجوع إلى أي تفسير، ثم يقرأ التفسير بعد ذلك، وعندها سيعرف كيف يتفهم كتاب الله من غير واسطة.

لقد أمرنا الله بتدبر القرآن، وتكفل لنا بحفظه، فاشتغلنا بالحفظ (على ما فيه من خير) وتركنا التدبر، دون أن ندرك أن تدبر القرآن يفتح القلب للحق ويرققه للاتباع، وهذا ما تشير إليه بعض معاني الآية التي نرددها كثيرا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ محمد: ٢٤.

والقرآن، كما يؤكد على ذلك د. محمد إلهامي -ليس مجموعة أفكار، فالقرآن فوق كونه حقا، ينشئ حالة نفسية في قارئه، وإدمان تلاوة القرآن، تصنع ذائقة فكرية وشعورية، يميّز الإنسان بها بين الحق والباطل، حتى وإن لم يتمكن من التعبير عنها.

إن القرآن ينزع الإنسان من همومه اليومية، وتفاصيله الصغيرة، ليضعه في صورة الحقائق الكبرى، صورة الكون والناس والخلق، معركة الحق والباطل المستمرة منذ آدم، والممتدة في نهر الزمان، مع كل نبي، والتي لا تزال فصولها تتجدد وتتكرر، فيجد الإنسان أنه قد صار أوسع صدرا، وأهدأ نفسا، وأرحب فكرا، وأطول صبرا.

وعلاقة المسلم مع القرآن، كما يصفها الدكتور عودة الجيوسي، هي (علاقة عضوية وحيوية) حيث تؤثر هذه العلاقة على قدرات الإنسان السمعية والبصرية والفكرية، ومن خلال الصلوات الخمس، وقراءة القرآن الكريم، وتكرار بعض العبادات، كشكل من أشكال الذكر، يتم إعادة هيكلة روح المسلم إلى مجموعة من المواقف الروحية التي تؤكد على عظمة الله، ومدى تأثير القرآن الكريم في الإنسان، حينما يحسن استقباله والاستفادة منه.

وفي واقعنا الذي نعيشه اليوم، قضايا ومشكلات وأسئلة، نحتاج إلى تأملها في ضوء القرآن، ولكننا -للأسف -لا نقرأ القرآن لنستمد منه الهداية اللازمة لحل مشكلاتنا، بل نكتفي في معظم الأحيان بقراءة القرآن من أجل ما في قراءته من أجر وثواب، أو لتعزيز الأحكام الفقهية التي نتعلمها بالشاهد القرآني، أو للأُنس بقراءته واستشعار السكينة والطمأنينة النفسية، وفي ذلك خير وبركة. لكننا

ما لَمْ نحاول أن نقيم التفاعل بين القرآن الكريم وقضايا الواقع الذي نعيشه ومشكلاته وأسئلته، فلن نجد القيمة المنهجية والمعرفية للقرآن في حياتنا. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ الإسراء: ٩، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ الزخرف: ٤٤.

ومما يسهم في تطوير منهج التعامل مع القرآن، أن نُقْبلِ عليه ومعنا مشكلات قد تم تحديدها، وأزمات نودُّ الخروج منها، وأسئلة تحتاج إلى إجابات، وما أكثر ما لدينا من كل ذلك في واقعنا المعاصر! لقد ألفنا في مجتمعاتنا المعاصرة أن نذهب بمشكلاتنا إلى الخبراء الأجانب، نستعطي منهم الحلول، وقد استعصت علينا الحلول، ولا مخرج لنا مما نحن فيه إلا بالعودة الصادقة الواعية، التي فيها حياتنا وعزنا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ الأنفال: ٢٤.

والقرآن كتاب يدقُّ أجراس الخطر للبشرية الغافلة عن المعنى الأكبر للحياة، إنها ليست حياة واحدة، بل أكثر من حياة: حياة في عالم

الذر، وحياة في الأرحام، وحياة في الدنيا، وحياة في القبر، وحياة بعد البعث، ولكل حياة طبيعتها، وكل حياة تتوقف على التي قبلها مبنى ومعنى.

إن الأمثال التي يضربها القرآن للناس أمثلة بليغة، وما يعقلها ويدرك أبعادها ويفهمها فهما جيدا بمغازيها ومراميها وأهدافها إلا العالِمون، هؤلاء الذين يهزهم القرآن من الداخل، فتقشعر جلودهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله.

والقرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق. وهذا ما قاله به أحدهم، عندما أحسن التواصل مع كلام ربه جل جلاله، فقال: قرأت القرآن فأذهلني، وتعمقت فيه ففتنني، ثم أعدت القراءة فآمنت، وكيف لا أؤمن ومعجزة القرآن بين يدي أنظرها وأحسها كل حين، هي معجزة لا كبقية المعجزات، معجزة إلهية خالدة تدل بنفسها على نفسها، وليست بحاجة لمن يحدِّث عنها أو يبشر بها. إن القرآن بالفعل حياة الروح وروح الحياة.

حديث الروح للأرواح يسري فتدركه القلوب بلاء عناء

وقد نزل القرآن ليداوي أوجاع القلوب وشهواتها، ويعالج وساوس العقول وشبهاتها، يعالج أمراض الفرد في إطار جماعته وأمته، وإذا كان فيما تنتجه النحل من عسل شفاء لأبدان الناس، كما قال سبحانه: ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ

وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ النحل: ٦٨ - ٦٩ ، فإن القرآن (عسل الأرواح)، و(رحيق الأفئدة)، و(شفاء لما في الصدور)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٨٢﴾ ﴾ الإسراء: ٨٢، وجماع أمراض القلوب في نوعين: أمراض الشبهات، وأمراض الشهوات، والقرآن شفاء للنوعين، إذا أحسن الناس الاستشفاء به.

وهذا يقودنا إلى التذكير بأن عظمة الخُلق التي وصف بها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴿٤﴾ ﴾ القلم: ٤، إنما جاءت من كونه قد التحم بالقرآن، إلى درجة أنه (صار قرآنا يمشي على الأرض)، كيف لا، وهو الذي كان (خُلقه القرآن)، وهناك فرق بين الخِلقة (بكسر الخاء) وهي ثابتة في الإنسان، وبين الخُلق: فإذا كانت الخِلقة هي هيئة البدن، فإن الخُلق هو هيئة الروح والنفس، ومعنى حديث النبي السابق: أن كل خلقه صلوات ربي وسلامه عليه كان القرآن. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ

أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾

الأحزاب: ٢١.

قلب الأم ♥ ♥ ♥

عندما تقرأون عنوان هذا المقال، يتبادر إلى أذهانكم ذلك القلب الذي يحويه صدر الأم، قلبٌ غُمس في الرحمة، وكأنه جاء من الجنة، وركِّب لكل أم لتؤدي به وظيفة الأمومة، قلبٌ ركِّبت فيه كل الحواس، فهو العين والأذن واللسان، وهو حاسة الشم واللمس، وهو الحاسة السادسة والسابعة إلى العاشرة إن كانت هناك حواس إضافية.

هذا القلب الذي جاورتَه أيُّه الابن وأيُّتها البنت تسعة أشهر، وأنت تسمع نبضاته عن قرب، ونِعمَ الجوار جوار هذا القلب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ النساء: ٣٦، وهذا القلب تنطبق عليه صفات الجوار الثلاث، فقد أفاض عليك، ومنحك ما به حياتك، فلا تتنكر لجوار من كان هذا حاله معك، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾ البقرة: ٢٣٧.

هذا القلب الذي استقبلك بعد خروجك إلى الدنيا، وسقاك من بحر حبه وعطفه ما غمرك، قبل وبعد وأثناء سقياه إياك، قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ النحل: ٦٦، وصرت تضع أذنك على صدر أمك، لا يفصلك عن هذا القلب إلا فاصل رقيق، فكانت نبضاته ودقاته أفضل سيمفونية سمعتها أذناك، وصرت تتردد على هذا الصدر، لا لكي تلتقم الثدي فقط، بل لتسمع هذا النشيد الملائكي السماوي الذي يعزفه وينشده هذا القلب. حتى صمت الأم مع صغيرها لغة، كيف ذلك؟ أصدقكم القول أنني لا أدري، فهذا (سر قلوب)، خاص بالأمهات فقط، ولكني سأعطيكم إشارة ذكرها نيلسون مانديلا، يقول فيها: "إن صمت القلوب الذي يجمع بين الأم وابنها ليس موحشا". هل فهمتم من كلامه شيء؟ أتمنى ذلك.

وتتقلب بك الأيام وتكبر قليلاً، لكنك تبقى في نظر هذا القلب صغيرا، وإن ظهر لك شارب، سرعان ما تهرع إلى هذا القلب كلما أصابك مكروه، فترتمي في حضن هذه الأم، وأنت تريد أن تصل إلى ذاك القلب، الذي لا زال عهدك به قريبا، فقد هزَّك الشوق إلى لقياه، إنه غذاء وشفاء وراحة وطمأنينة، لا يمكن أن يدركها من يبحثون عن السعادة في غير قلب الأم. (فقلب الأم لا يشيخ ولا يعجز ولا يهرم ولا يشيب). كما يقول بيتهوفن

قلب الأم باب من أبواب الدنيا، توفيقا وتيسيرا وقبولا وإكراما، وهو هو باب إلى الجنة يضاف إليه باب الأب، فهل يدخل النار من كان له بابان إلى الجنة؟! وإذا كان للجنة أبواب متعددة يلجها الطائعون

عموما، فإن للبارين بأمهاتهم وآباءهم بابان خاصان جهزت مصاريعهما في الدنيا، فكان الجزاء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ الحجر: ٤٦.

ماذا أقول عن قلب القلوب؟ ماذا أقول عن عروس القلوب؟ ماذا أقول عن تاج القلوب؟ ماذا أقول عن أرحم القلوب؟ ماذا أقول عن أنقى وأصفى وأطهر القلوب؟ إن لساني يعجز، وكلماتي تكلّ، وعباراتي تقصر، وخيالي يتوقف.

سلام على هذا القلب الذي اتسع فلم تعد تحده حدود، وسلام على هذا القلب الذي سما فتجاوز الجوزاء، كل العظماء وراءهم هذا القلب، وكل الأذكياء قبسوا من هذا القلب، وكل الحكماء رضعوا الحكمة من هذا القلب، وراء كل عظيم قلب عظيم وكبير كقلب الأم الذي أحدثكم عنه.

ولا شك أنكم تذكرون بيت أمير الشعراء أحمد شوقي الذي يترنم به الكثيرون عندما قال:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

ولا أدري هل كان شوقي عندما قال هذا البيت يتحدث عن الأم بقلب أم بغير قلب؟ ما المدرسة وما الكلية وما الجامعة وما الأكاديمية بجوار الأم التي تحمل قلبا بهذا الاتساع والعظمة؟ لو كنت في زمن شوقي لقلت له أعد صياغة بيتك من جديد، واعط كل ذي حق حقه،

فالأمهات اللاتي تكون (الجنة تحت أقدامهن)، ترى ماذا يكون تحت ظلال قلوبهن العظيمة؟ لا ريب إنها جنة، بل جنتان: إحداهما في الدنيا، والثانية جنة المأوى.

ومن المُشاهَد، كما يؤكد الدكتور نبيل سليم علي، أحد الخبراء التربويين والنفسيين، أن الأم عندما ترضع طفلها فإنها تضمه إلى صدرها، فيشعر بالدفء والحنان. وقد لاحظ العلماء أن الطفل عند الرضاعة يسمع دقات قلب أمه، مما يحدث له نوعاً من الاطمئنان والراحة. وقد أوصى العلماء القائمون على دور الحضانة بتسجيل صوت هذه الضربات على شرائط تسجيل حين الرضاعة الصناعية، ليسمعها الطفل فتحقق له راحة نفسية، تقارب تلك التي يشعر بها الطفل الرضيع من أمه، وهيهات أن تكون مثلها.

وكما قيل: فإن هزات وضربات القلب المنتظمة، تؤدي إلى نمو خلايا معينة في مخ الطفل تجعله أكثر سلامة من الناحيتين، الصحية والنفسية. فمسكين ذلك الإنسان الذي عاش بغير أم، لقد فاته خير ما في الدنيا، فكل فتى لأمه محب، لا يبصر العيوب قلب صَبّ، فالعقل عند المستهام قلب. والحنانُ الذي تعطيه الأم ليس حناناً شكلياً ولا وظيفياً، ولكنه طبيعة حياة خلقها الله في قلب الأم لتعطي العطاء الصحيح.

لقد اكتشفتُ (والكلام على لسان توماس أديسون كما جاء في مذكراته)، في حياتي، وفي وقت مبكر أن الأم أطيب كائن على الإطلاق، لقد دافعت عني بقوة عندما وصفني أستاذي بالغبي، وفي تلك اللحظة عزمتُ أن أكون جديرا بثقتها، كانت شديدة الإخلاص، واثقة بي كل الثقة، ولولا إيمانها بي لما أصبحت مخترعا أبدا. إن أمي هي التي صنعتني، لأنها كانت تحترمني وتثق بي، وأشعرتني أني أهم شخص في الوجود، فأصبح وجودي ضروريا من أجلها، وعاهدت نفسي ألا أخذلها كما لم تخذلني قط!

إن أصعب ما يمكن أن تلاقيه الأم أن تجد ما بنته وعاشت من أجله يتهدم أمام عينيها شيئا فشيئا. ومع هذا فقد زوَّد الله الأم بشيئين عظيمين يؤهلانها حقا لأن تكون المربي الأكبر، وهذان الشيئان هما: حنان غير محدود، وصبر لا يعرف النفاد. وكما يقول علي عزت بيجوفيتش: "فقد كرّست جميع الأديان الأسرة باعتبارها عُشّ الرجل، واعتبرت الأمَّ المعلِّم الأول الذي لا يمكن استبداله بغيره".

إن الأمومة -يا أيها الأحبة-في النساء غريزة، ولا يمكن لأم أن تعيش بلا أمومة، على عكس الأبوة في الرجال فإنها تجربة. وتأمل معي هذه الأبيات التي صوّر بها الشاعر ذلك القلب عندما يتنكر له الابن، ويقابل العطاء بالنكران، والبر بالعقوق، ماذا يكون موقف هذا القلب، أتمنى أن تقرأ الأبيات بقلبك وأن تستحضر هذا المشهد وكأنك تراه:

أغرى امرؤ يوما غلاما جاهلا عن أمه كيما ينال به الوطر

قال ائتني بفؤاد أمك يا فتى ولك الجواهر والدراهم والدرر

فأتى فأغرز خنجرا في قلبها والقلب أخرجه وعاد على الأثر

لكنه من فرط سرعته هوى فتدحرج القلب المعفر بالأثر

ناداه قلب الأم وهو معفر ولدي حبيبي هل أصابك من ضرر؟

واستل خنجره ليطعن قلبه طعنا فيبقى عبرة لمن اعتبر

ناداه قلب الأم كف يدا ولا تطعن فؤادي مرتين على الأثر.

حين أسمع من حولي يتحدثون عن عيد الأم، أنسحب بهدوء، واتوجه إلى مصحفي أبادلهما الهدايا الثمينة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤ ﴾ الإسراء: ٢٤، أما من كان والداه أو أحدهما على قيد الحياة، فليلزم بابهما فثمّ الجنة.

يحول بين المرء وقلبه...

يقول أحد العلماء: خالف موسى عليه السلام العبد الصالح ثلاث مرات فقال له: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ ﴿٧٨﴾ ﴾ الكهف: ٧٨، وأنت تخالف الله في اليوم مرات ومرات، ألا تخشى أن يقول لك ربك: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ ﴿٧٨﴾ ﴾ الكهف: ٧٨. لقد كان هؤلاء العلماء يدركون شؤم المعصية وأثرها على القلب، ويسوقون لأنفسهم ولغيرهم هذه الأمثلة حتى ترعوي النفس عن غيها، ويؤوب القلب إلى ربه.

عنوان هذا المقال هو جزء من آية قرآنية، تدعو إلى الحياة الربانية، وعلى رأس ذلك حياة القلب، آية ينادي الله فيها عباده لأن يستجيبوا له ولرسوله لأن في ذلك حياتهم، ويحذرهم مغبة أنهم في حال عدم استجابتهم لما يحييهم، أنهم لن يستطيعوا السيطرة على قلوبهم، فسيحول الله بينهم وبينها، يقول عز من قائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ الأنفال: ٢٤.

وليس الأصل أن يكون في القلوب زيغ، كما يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي، فالفطرة السليمة لا زيغ فيها، لكن الأهواء هي التي تجعل القلوب تزيغ، ويكون الإنسان عارفاً لحكم الله الصحيح في أمر ما، لكن هوى الإنسان يغلب فيميل الإنسان عن حكم الله. والميل صَنْعَةَ القلب، فالإنسان قد يُخضِع منطقه وفكره ليخدم ميل قلبه، ولذلك قال لنا الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به).

إن من يجهل قلبه فهو بغيره أجهل، وأكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم وربهم -إلا من رحم الله-، وقد حيل بينهم وبين قلوبهم، فالله يحول بين المرء وقلبه. ومعنى يحول بين المرء وقلبه، أن الإنسان يريد ولكن القلب لا يطاوع، وقد يفاجأ الإنسان بذلك، وأشد ما تكون المصائب والفضائح والبلايا وقعا على القلوب إن كانت مفاجئة، صادمة، لا يُتنبأ بوقوعها.

(يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ)، بمعنى يُلقي في قلب الإنسان ما يحجزه عن مراده، ويغير عليه نيته، ويصرفه عن قصده، لحكمة تقتضي ذلك، ولهذا كان من توفيق الله للإنسان أنه قد يتكاسل عن الطاعة فييسر الله له من يدفعه إليها دفعا، وقد تنازعه نفسه على فعل المعصية فييسر الله له ما أو من يصرفه عنها. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ

لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ الأعلى: ٨، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ الليل: ٧.

ومن عدم توفيق الله للإنسان أنه قد ينشط للطاعة فيبتلى بما أو بمن يؤخره أو يمنعه عنها، وقد تتردد نفسه عن فعل المعصية فيبتلى بما أو بمن يدفعه إليها دفعا. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ الليل: ١٠.

يقول الجد لحفيده شارحا له مأساته في الحياة: يبدو الأمر وكأن في قلبي ذئبين يتقاتلان، الأول غاضب، وقلبه مشحون برغبة الانتقام، والثاني رحيم عطوف. سأله الحفيد: أي منهما باعتقادك سوف يربح معركة قلبك؟ أجابه الجد: إنه الذئب الذي أغذيه.

إن الله ليهب العلم على قدر التقوى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ البقرة: ٢٨٢، وأن المسألة لم تكن يومًا مسألة عقول بل مسألة قلوب! وأن الله تعالى لا يتجلى لمن كان قلبه أعمى. والقلوب الذكية السليمة هي التي تدرك روح الخير وتحياه.

واعلم -يرحمك الله-أنَّ الله يَقبَلُك حيث كنت، فلا يُطلب للاستدراكِ مُؤهِّلٌ معين، ولا موسمٌ مُعين، وإنَّ الخيرَ مُختَبِئٌ خلف الشروع في العمل وإقبال القلب بعد توفيق الله، وليس مرتبطًا بزمانٍ فاضلٍ ولا بمكانٍ مبارك، فاستدرك على نفسك من اليوم، واستكثر

من الخير؛ فربما الذي تبقى من العمر أن يكون أقل مما تقدم. محمد الأسطل

يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه الرائع (جدد حياتك)، ذاكرا قصة رجل استطاع أن يتناغم مع أعضائه ويقودها قيادة المؤمن الراضي، فقال: أعرف رجاً قطعت قدمه في جراحةٍ أجريت له، فذهبتُ لأواسيه، وعزمت أن أقول له: إن الأمةَ لا تنتظر منك أن تكون عدَّاءً ماهرًا، ولا مصارعًا غالبًا؛ إنما تنتظر منك الرأي السديد، والفكر النيرِّ، وقد بقي هذا عندك ولله الحمد! لكني عندما عدته وجدته يقول لي: الحمد لله! لقد صحبتني رجلي هذه عشرات السنين صحبةً حسنة، وفي سلامة الدِّين ما يُرضي الفؤاد.

ويورد ابن القيم عن شيخه ابن تيمية قوله: لا تجعل قلبك للإرادات والشبهات، مثل الاسفنجة، فيتشربها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة، تمر الشبهات بظاهرها، ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا اشربت قلبك كل شبهة تمر عليها، صار قلبك مقرا للشبهات، يقول ابن القيم بعدها: فما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك.

إن تقييد حركة الأعضاء والأطراف يكون بربطها بالسلاسل والقيود، وتقييد العقل يكون بربطه بأهواء القلب، وبسلاسل رغبات النفس، من حب وكره وتعصب وما إلى ذلك. وتخلُّف جوارح الإنسان

عن العمل دليل على تخلف القلب عن اليقين. وإذا أبصرت العين الشهوة عَمي القلب عن الاختيار، حسب وصف الشيخ عبد العزيز الطريفي.

وقلب المؤمن التقي -كما هو العهد به -بمثابة كوة تشع منها حقائق الإيمان لإضاءة شاهد الوجود وتجلية غائبه. وإن ما في القلب من النور والظلمة والخير والشر، يسري كثيرا إلى الوجه والعين، وهما أعظم الأشياء ارتباطا بالقلب.

استفت قلبك...

أسارع إلى القول في بداية هذا المقال، إلى أني لا أقصد من هذا العنوان، الذي هو جزء من حديث للنبي صلى الله عليه وسلم، أني سأتوّج القلب مشرِّعا للحلال والحرام والحق والباطل والطيب والخبيث، فهذا غير وارد، إنما أقصد أن هناك قلبا كتب الله فيه الإيمان، وامتلأ ورعا وتقوى، وتشبع بالعلم والوعي، فصارت له فراسة المؤمن، التي يرى على ضوئها بنور الله.

والأصل، عندما نريد فهم مسألة على وجهها الصحيح، أن نسعى إلى فهمها في ظل أساسيات الإسلام الكبرى، وأن يتم تجميع كل شواهدها، لتكتمل الصورة الواضحة لها، وفي موضوع مقالنا هذا، يمكننا أن نفهم مسألة (استفتاء القلب)، من خلال جمعنا بين أكثر من حديث، يأتي على رأسها حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات...)، وحديثه صلى الله عليه وسلم: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة)، وعندها سيصبح فهمنا لحديث (وابصة) مكتملاً وواضحا، فقد سأل وابصة رضي الله عنه الرسول صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: يا وابصة، استفت قلبك، واستفت نفسك، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن

أفتاك الناس وأفتوك. رواه الإمام أحمد في مسنده، وفي رواية الإمام مسلم (البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس).

وفي هذه الأحاديث يلفت الرسول صلى الله عليه وسلم نظرنا إلى ضرورة أن يكون الإنسان واعياً مُميّزاً بقلبه بين الحلال والحرام، وعليه أن يُراجع نفسه ويتدبر أمره. وفي هذا دليل على أنه سيأتي على الناس زمان يُفتي فيه المفتون بغير علم، ويُزيّنون للناس الباطل، ويُقنعونهم به. والكلام موجه لمن شرح الله صدره بنور اليقين، والذي قد يقع في يد من قد يفتيه بمجرد حدس أو ميل من غير دليل شرعي، أما مع وجود الدليل الشرعي الصحيح الصريح فيلزمه الاتباع والانقياد، وإن لم ينشرح له صدره. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٦.

والإنسان في كثير من الأحيان قد يعرف الحق ولكنه يتأوّل الوسائل لترك الحق إلى الباطل؛ لأن الحق لا تأنس به نفسه، والعكس كذلك، فقد يعرف الإنسان الباطل والخطأ فيتأوّل الوسائل والطرق للوقوع في هذا الخطأ؛ ومع كونه يريد هذا الأمر، إلا أنه يعرف في قرارة

قلبه أن هذا الأمر خطأ، وهذا هو الأمر الأول، كما يؤكد على ذلك الدكتور سلمان العودة.

والأمر الثاني: إن الإنسان الذي رزق تقوى واستقامة ونقاء وصفاء في قلبه، فلا شك أن قلبه قابل للحق أكثر من ذلك الإنسان الذي أظلم قلبه.

أما الأمر الثالث: فأن العلماء، ومنهم ابن عبد البر، ذكروا أنه قد يوجد حالة محدودة ونادرة وتعتبر استثناء من الأصل قد يلجأ الإنسان فيها لمثل هذا الاستفتاء (استفتاء القلب)، وذلك حين يبحث في المسألة ويجمع الأدلة، ويسأل الناس، ثم يقف مع ذلك كله غير قادر على الترجيح بواسطة الدليل فهذا منتهى قدرته، فحينئذٍ يمكن أن يلجأ إلى ما تطمئن إليه نفسه بعد ذلك.

ولذلك تجد بعض العلماء الكبار المشار إليهم بالبنان، يقول وهو يرجّح مسألة ما: والذي تطمئن إليه النفس، واطمئنان نفسه هذا ليس على سبيل التشهّي والرغبة، بل لأنه من كثرة ممارسته لبحث النصوص، وكثرة سماعه لها ومعالجته لها، تكون لديه ملكة في ذلك، كما كان يوجد لدى بعض المحدثين ملكة يعرفون بها علل الحديث، ولو لم تكن العلل ظاهرة. إن قلب المؤمن الصادق الباحث عن الحق أمينٌ لا يخون، وفطرته المتجردة من الهوى والخوف والطمع ميزانٌ لا يكذب.

وشريعة الله نفسها بعد أن بينت الحلال والحرام تركت المنطقة التي تختلط فيها الأوصاف وتشتبه فيها الأحكام إلى حكم العقل ومنطق الضمير، وفي الحديث (استفت قلبك وإن أفتاك الناس) مسند الإمام أحمد والدارمي، وفي هذا "تفويض لكل امرئ أن يستضيء بنور عقله وقلبه، حين تشتبه عليه الأمور ويتحرى في ذلك ما تطمئن إليه نفسه". كما يقول د. محمد الجليند

وفي إشارة النبي صلى الله عليه وسلم إلى جانب النفس وعلاقتها بالفطرة حين قال: (استفت نفسك، البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدروإن أفتاك الناس). في الإشارة تأكيد، كما يؤكد على ذلك أ. د / أحمد الدغشي، إلى مقدرة الأساس الفطري في جانب النفس على التفاعل مع الخير إيجابا، ومع الشر نفورا ومقاومة. (استفت نفسك) المطمئنة الموهوبة نورا، يفرق بين الحق والباطل والصدق والكذب، بمعنى عوِّل على ما في قلبك، لأن للنفس شعورا بما تحمد عاقبته أو تذم، والتزم العمل بما في نفسك ولو (أفتاك المفتون) بخلافه لأنهم إنما يطلعون على الظواهر.

لقد مرت امرأة على مجلس فقالت: من الفقيه فيكم؟ فأشاروا إلى أحدهم، فقالت له: كيف تأكل؟ فقال لها: أسمي الله، وآكل بيميني، وآكل مما يليني، وأصغّر اللقمة، وأجيد المضغة، فقالت له: وكيف تنام؟ قال: أتوضأ، وأنام على جنبي الأيمن، وأقرأ وردي من الأذكار،

فقالت: أنت لا تعرف أن تأكل ولا تعرف أن تنام، فنظر لها وقال مستغربًا!! إذًا كيف الأكل والنوم؟ فقالت له: لا يدخل بطنك حرامًا وكل كيف شئت، ولا يكون في قلبك غلٌ على أحد، ونم كيف شئت، وما أخبرتني به هو أدب الشيء، وما أخبرتك به هو جوهر الشيء.

كثيرٌ من الناس يبالغ في مظهره، ولكنه لا يتحقق بالجوهر، وما أدراك ما الجوهر؟! فالعرب لم ينبهروا بملابس الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ولا بمطعمه، ولا بمشربه، ولكنهم انبهروا بعظيم أخلاقه، وطيب سيرته، وحسن أدبه، ولين معاملته. فحوّلهم من أمة ترعى الغنم، الى أمةٍ تقود الأمم.

وفي القصة السابقة، إشارة واضحة إلى أن اطمئنان القلب لا يتوقف على أشكال العمل ومظاهره، بل لا بد من حضور جوهره، واجتماع المظهر والجوهر فيه خير كثير، وفيه جمع بين الإخلاص والاتباع، وهذان الأمران مما تطمئن بهما القلوب والنفوس وتأنس.

إن للإثم حزازات في القلوب، فإذا وجد قابض المال -مثلا-في نفسه شيئا منه، كأن يكون فيه شبهة ربا أو غير ذلك، فليتق الله ولا يترخص، تعللا بالفتوى من علماء الظاهر، فإن لفتاويهم قيودا من الضرورات وفيها تخمينات، واقتحام شبهات، والتوقي عنها من شيم ذوي الدين وعادات السالكين لطريق الآخرة.

وإذا تشاجر في فؤادك مرَّة أمران فاعمد للأعف الأجمل.

والأمر الجوهري بالنسبة لي كمؤمن، وفق تعبير الدكتور محمد عبد الله دراز، هو أن أبذل جهدي في حال الالتباس، وأن أميِّز، وأتبع، بأمانة وإخلاص، ما يمكن أن يكون من أمر الله، تبعًا لمجموع تعاليمه. ولو كان الحل الذي اجتهدت فيه واخترته قد جانب الصواب، فلن أكون آثمًا، متى ما بذلت جهدي الضروري، الذي يصدر عني، لإضاءة طريقي، والله يقول: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ الأحزاب: ٥.

وعلينا أن نصغي إلى قلوبنا، اطمئنانا ونفورا، وعلى نور من الله، لأنه حيث تكون قلوبنا يكون كنزنا.

ليلة قدر قلبك...

ومن عجب أني أحنُّ إليهمُ وأسأل عنهم من لقيت وهم معي

وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي.

يقول ابن القيم: (إنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها، ووليها ومولاها، وربها ومدبرها، ورازقها، ومميتها ومحييها، فمحبته نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفوس، وقوت القلوب، وعمارة الباطن).

إن كنت لست معي فالذكر منك معي يراك قلبي وإن غيبت عن بصري

العين تبصر من تهوى وتفقده وناظر القلب لا يخلو من النظر

ولأن ربنا ـ جل جلاله ـ يعرف حبَّ الإنسان للمفاجآت السارة، وشغفه باقتناص الفرص المواتية، فقد منحه أماكن فاضلة، وأزمنة فاضلة، يستدرك فيها وبها ما فاته في أيام غفلاته، فالعمر ليس بطول السنين، بل بما يكون فيها، (فرب عمر اتسعت آماده "سنينه" وقلت أمداده "نتائجه، ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده. ومن بورك له في عمره، أدرك في يسير من الزمن من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة). ابن عطاء الله السكندري

قد يهون العمر إلا ساعة وتهون الأرض إلا موضعا

والسير إلى الله، ليس سيرا بالأقدام، وإنما هو سير بالقلوب، والمراحل التي يقطعها الإنسان إلى ربه لا تحسب بالأميال، بل تحسب

بالنيات الخالصة، (فكل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي برز منه)، وهذا السير إليه سبحانه، يتطلب من الإنسان أن يفكّ عن نفسه الأغلال، ويطرح عن كاهله الآصار، وإلا فكيف يسير إلى الله من كبّلته الأغلال، وجثمت عليه الآصار.

(كيف يشرق قلبٌ صور الأكوان منطبعة في مرآته. أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبّلٌ بشهواته. أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته. أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟). ابن عطاء الله السكندري.

وما دمت قد جئت بابه طالبا، فاجعل طلبك متحقق به سبحانه، (فما توقف مطلب أنت طالبه بربك، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك)، (ومتى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك)، وعندها عليك أن تتحقق بأوصافك كعبد، لتنال عطاء الله كرب، (تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه، تحقق بذلك يمدك بعزه، تحقق بعجزك يمدك بقدرته، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته) (وإذا أردت أن تعرف قدرك عنده فاعلم فيما يقيمك). ابن عطاء الله السكندري

سأل عيسى عليه السلام حواريه: أين تنبت الحبة؟ قالوا: في الأرض. فقال عليه الصلاة والسلام: كذلك الحكمة لا تنبت إلا في قلب مثل الأرض. (لولا جميل ستره لم يكن عمل أهل للقبول).

حمقا شكوت لغير الله أوجاعي فلم تلامس لديهم غير أسماع

وحين بحت بها لله في ثقة لمست راحة قلبي بين أضلاعي.

إن غزارة الخير النازل في هذه الليلة يبدو واضحا أشد الوضوح في قوله تعالى: ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ ﴾ القدر: ٣.

رب عمر طال بالرفعة لا بالسنوات وقطيرات زمان ملأت كأس الحياة.

ليلة القدر، رفع من قدرها نزول القرآن الكريم فيها، ولمنزلة القرآن وعلو قدره أنزل في ليلة القدر، فهو قرآن كريم، وهي ليلة مباركة، والقرآن فرقان، وليلة القدر فيها يفرق كل أمر حكيم، تكاثفت في هذه الليلة جميل أوصافها، وجميل أوصاف ما نزل فيها، فالنور يغمر الكون، فالقرآن نور والملائكة نور، ومن أنزل عليه القرآن صلوات ربي وسلامه عليه نور، فهي ليلة نورانية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، والموفق من يدخل في خضمّ هذا النور، فيعبُّ منه حتى يرتوي.

وقد أبهم الله موعد ليلة القدر لينتبه كل منا ويعرف أن هناك فرقا بين الشيء لذاته، والشيء الذي يُبهم في سواه؛ ليكون كل شيء هو الشيء، بمعنى سريان الفضل والحكم على بقية الأجزاء الأخرى، فيؤدي ذلك إلى المحافظة على جميع أجزائه. فما دامت الصلاة الوسطى، كما في قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾ البقرة: ٢٣٨، تصلح لأن تكون الصبح

والظهر والعصر والمغرب والعشاء، كما يرجح ذلك الشيخ الشعراوي في تفسيره، فذلك أدعى للمحافظة على الصلوات جميعا. فإبهام الشيء إنما جاء لإشاعة بيانه، ولذلك أبهم الله ليلة القدر للعلة نفسها وللسبب نفسه، فبدل أن تكون ليلة قدر واحدة أصبحت ليالي أقدار.

إن الثواب المترتب على قيام ليلة القدر يحصل لمن اتفق له قيامها بالعبادة، وإن لم يظهر له شيء من علاماتها، ولا يتوقف الفضل الحاصل له على كشفها أو ظهور شيء من العلامات. يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس: (وإن مما يؤسف له، أن الأوقات المفضلة في ديننا قد غمرناها بالخرافات، وصرفنا أنفسنا عما يراد فيها من الطاعات، فحرمنا من خير كثير، وقلما تجد وليا صالحا، أو وقتا فاضلا، إلا وهو محاطٌ بخرافات تعين إبليس على إبرار قسمه في الإغواء، وتقف حجر عثرة أمام الداعي المرشد إلى الصراط المستقيم).

والعجيب الغريب، أن كثيرا ممن يتحرون ليلة القدر، يجتهدون في البحث عن علاماتها في ليلتها أو اليوم الذي يليها، وهذا من تقديم ما لا أجر فيه على ما فيه الأجر الكثير، رغم أن هناك بحث علمي قام به الدكتور عمار الصياصنة أثبت فيه أن كل العلامات التي يتداولها الناس أنها علامات على ليلة القدر، لا ترقى إلى أن تكون أدلة معتبرة، بل إن بعضها أقرب إلى الوضع والخرافة، ثم إن الإخبار بعلامة لا تظهر

إلا بعد انقضاء ليلة القدر لا فائدة فيها للأمة، إلا ما يعقبه ذلك في نفوس الناس من الحسرة على ما فات، والكسل عما بقي.

يقول أحدهم: ليلةُ "قَدرِكْ" هي لكَ وحدك، فلا تبحث عنها في إحساس أو رأي أو اجتهاد أحد، فإن "أحسستَها" فإنها يقيناً "هي"... ستشعرُ بنسمةٍ تلفحُ برفقٍ روحَكَ وحدَكْ، ستحيا سلاماً وهدوءا داخليا لا يراه أحد، وستغزلُ الشمسُ خيوطاً ذهبيةً في أفقِ عينيك، وإن تصببت منها جباهُ الآخرين عَرقاً، هيَّ ليلتُكْ وحدك، فلا ترهق نفسك بما رأوه أو اجمعوا عليه أو اختلفوا فيه، فلا تَغُص في العلاماتِ التي يراها أو لا يراها الآخرون، فليلة قدرك هيَّ شعورٌ بالقربِ الإلهي في لحظةٍ تغيبُ فيها المادةِ والعلاماتِ والمعايير، وكيف للمشاعرِ أن تضبُطَها المعايير؟ لقد أخفى اللهُ عنا خَبَرها لنعلمَ أن "السلام" يبدأُ في حيزٍ صغيرٍ هو قلبُك، فإذا وجدتَ فيه السلام، وهدأت نفسك واطمأنت سريرتك وصفت نفسك، وأنت في معيّه ربك فهي ليله قدرك، فلا عليكَ بالعلامات ولا بفرديٍ وزوجيّ، ولا بحسابات الفلك، فقط أمعنِ الشعور ولا تُضَيّع "قدرُك" من بين يديّ قلبِك، اللهم بَلِغنا ليلتنا، واجعلنا ممن يقومونها إيمانا واحتسابا. "سلامٌ هيَّ حتى مطلع الفجر".

مناجاة قلب ♥ ♥ ♥

الإسلام يطالبنا بالحضور والشهود في الصلاة والصيام والقيام وتلاوة القرآن والذكر والدعاء والعطاء، يطالبنا بالحضور (عقلا)، لنتأمل ونشهد آيات الله في الآفاق والأنفس، ويطالبنا بالحضور (قلبا)، يفيض خشوعا وتبتلا، ورحمة وسلاما، وحبا وعطفا يسعُ البشرية بأسرها، ويطالبنا بالحضور (جسماً)، يؤدي كل عضو في هذا الجسم شكر المنعم المتفضل، ويستمد من حضور العقل والقلب النور والبصيرة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ آل عمران: ١٩١.

إن التعبد في الإسلام تصور يجمع شتات الإنسان، ليعيش لحظة العبادة بكل كيانه، (فالعقل) يفكر ويتأمل، و(القلب) يخشع ويطمئن، و(الجوارح) تخضع وتسكن، و(الروح) تسمو وتحلِّق إلى باريها، إنها لحظة تقرب فيها السماء من الأرض، وبهذا القرب تتقلص المسافات إلى حدود الصفر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ البقرة: ١٨٦.

إن الدعاء عبادة مطلوبة لذاتها، قبل أن تكون مطلوبة لنتائجها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ غافر: ٦٠، والدعاء نوع مبسَّط من أنواع الصلاة، له روح الصلاة ولكن ليس له أُطُرَها الرسمية، وقواعدها، وتحضيراتها، وإجراءاتها، وأوقاتها المحددة، إنه نوع من الصلاة الحرَّة الخفيفة الحمل، والمتنقلة التي تفاجئك في أي وقت وفي أي مكان، فلا تجد حرجا في أدائها حيث نادتك، وفي أي موقف وجدت نفسك فيه.

والدعاء جهد واع وليس مجرد ألفاظ تقال، بل هو موقف نفسي متميز، يتطلب من المرء أن ينتقل من موقفه السلبي، الذي كان عليه حين ارتكب الخطأ، إلى موقف جديد مِلؤه العزم والتصميم، على تجاوز الخطأ والعودة إلى الحق.

والدعاء -أيضا -مسؤولية، لأن العبد منذ اللحظة التي يتوجه فيها إلى ربه بالدعاء يصبح مسؤولا عن موقفه هذا، الذي يتضمن عهدا مع الله، ألا يعود إلى ما كان عليه من سلوك، وما أرتكبه من ذنب، فإن عاد كان كالمستهزئ بربه، وكان عهده مع الله حجة عليه. وفق تعبير الدكتور أحمد كنعان

ويجب أن يكون سلوكنا في هذه الحياة بناء على ما يريد الله، فنأخذ بالأسباب ونهيئ الظروف، ونراعي الشروط، ثم تبقى قلوبنا

معلقة بالله، ضارعة إليه أن يسدد خطواتنا، وأن يلهمنا الرشاد، وأن يهدينا السبل، التي تعيننا على إنجاز أعمالنا على أحسن ما نحب ونشتهي، وعندئذ يجدي الدعاء بإذن الله.

وقد كان الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه يدعو ويقول: (اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء). وهذا يجعل الدعاء الذي يتعبد به الإنسان هدفا ووسيلة، أي أن الدعاء ليس دائما للاستجابة فقط، فالدعاء إذا لم يتحقق استجابة (كما قد يخيل للإنسان) فهو قد تحقق عبادة، وهذا هو المطلوب من الدعاء كهدف في حد ذاته.

والدعاء طمأنينة، وفق تعبير الأستاذ أدهم شرقاوي، طمأنينة لا تتعلق بالإجابة بقدر ما تتعلق بالشعور الآمن بمعية الله حين تشاركه مخاوفك، وتطلعه على ضعفك الذي تخشى أن يتكشف للناس، ثمة شيء في الدعاء يجعلنا نتعافى من متاعبنا بمجرد أن نرفعه إلى السماء.

وقد قال بعضهم: إذا أراد الله أن يستجيب دعاء عبد رزقه الاضطرار في الدعاء، والاضطرار لا يتحققه العبد من نفسه في جميع حالاته. وإذا كانت استجابة الدعاء رحمة من الله، فموعد تنفيذه (استجابته) رحمة من الله كذلك. والدعاء هو الوجه الآخر للإرادة، وكأن لسان الحال يقول: أريد أن أكون مؤمنا، فاضلا، تقيا، غنيا، سعيدا، فاللهم أعني على ذلك.

ونحن نكرر الدعاء لأنفسنا، كما نكرر غسل أعضائنا، وفق تعبير الشيخ محمد الغزالي، لأن أسباب هذا التكرار قائمة، فالجسم الإنساني لا يكفي في تطهيره أن يغسل مرة أو مرتين، لابد من تكرار الغسل مدى الحياة!! والطبع البشرى لا تصقله دعوة أو دعوتان لابد من تكرار الوقوف بين يدي الله لأن رعونات النفس ووساوس الشيطان لا تنتهي، فلابد من تكرار الدعاء، واستدامة التضرع.

والدعاء سلاح المؤمن، ويقوّي سلاحه زمن الإجابة، فليتحرَّ فيه أشد أعدائه عليه فيصده وأحب شيء إليه فيحميه، ولا أحب إلى المؤمن من دينه، ولا أشد عليه اليوم من الفتن. ولإجابة الدعاء أوقات بعضها أرجى من بعض وإذا اجتمع أكثر من سبب كانت الإجابة أشد قربا كيوم الجمعة يجتمع فيه دعاء عند الفطر وآخر ساعة منه. كما يؤكد على ذلك الشيخ عبد العزيز الطريفي. والدعاء أمر عظيم وعبادة جليلة، وربما احتاج من الإنسان إلى التضرع، ليعظم أجره، ويزول بهذا التضرع كِبْر الانسان، وتنقى وتتهذب سريرته بطول الانكسار، فيتحقق له بذلك أمور عظيمة.

والدعاء في جوهره هو طلب تحقيق ما هو فوق مستوى الأسباب، وهو يعبر عن درجة رفيعة من الطموح الإنساني المستعين بالله تعالى. والدعاء عمل إيجابي يتطلب الصدق واليقين وحسن

التوجه، تجسيدا للطموح في إرادة التغيير، على مستوى يفوق طاقة الإنسان.

ونتيجة للفهم السقيم لهذا الدين، وأنه قائم على سنن وضعها الله حتى في مسألة الدعاء، الذي هو طلب العون والمدد من الله، فقد ساء فهمنا له، فكم رأينا ملايين المظلومين من المسلمين الذين يتعرضون للاحتلال والغزو والذبح والإبادة العرقية والاعتقال وتدمير الممتلكات والمقدسات وهتك الحرمات، يدعون الله فلا يجاب لهم، لأنهم عصوا الله بعدم الوحدة، والإصرار على الفرقة، وعدم الإعداد والاستعداد، وعدم الاسترشاد سياسياً وعسكرياً، فجاءت المعصية مقدماً لتمنع الإجابة مؤخراً، وهذه من سنن الله في الآفاق والأنفس.

وفي تقديمه لكتاب (الدعاء سبيل الحياة الطيبة) للدكتورة سعاد الناصر، يضع الأستاذ عمر عبيد حسنة نقاطا عديدة، جديرة بالتوقف عندها، والاستفادة منها، فهو يؤكد على أن الدعاء في حقيقته وعلّة تشريعه ليس هروباً من الحياة، ولا انسحاباً من قضاياها ومشكلاتها، ولا إلغاءً لهمومها وهممها، كما قد يتوهم كثير من الناس، والدعاء ليس حالة سلبية، أو تجاوزاً للسنن والقوانين الإلهية وقفزاً من فوقها، وإنما هو تجديد لإبصارها، والإيمان بفاعليتها واطرادها، ورجاء امتلاك القدرة على تسخيرها، والوصول إلى القدرة على مغالبة قدر بقدر.

فالدعاء قوة دافعة، ودرع واقية، وحالة إيجابية تربوية وقائية، يمكِّن لملكة التقوى في النفس، ويبصر بالفرقان المتولد منها وعنها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ ﴾ الأنفال: ٢٩، وحالة علاجية تعالج الإحباط والانكسار واليأس والعجز وانطفاء الفاعلية. إنه تجديد للفاعلية، وشحذ للهمة، وإزالة للهموم، ومنح الثقة لتجاوز الحواجز والموانع والمعوقات، وتحقيق الاتصال المباشر مع القوة المطلقة، صاحبة العلم المطلق، والبوح لها بكل المعاناة.

إن الدعاء اتصال مباشر في كل زمان ومكان، ولحظة وحالة مع القوة المطلقة القادرة على الاستجابة، وفي هذا ما فيه من المعاني التي وقف عندها طويلاً علماء التحليل النفسي المعاصرون، الذين يعتبرون أن البوح عما يعتلج في النفس والتفريغ للأحزان والآلام هو سبيل شفاء الكثير من الأمراض النفسية، وأن حالات الضعف والإصابة النفسية تستدعي البوح الذي يحقق الراحة النفسية للمريض، ويعيده إلى الحالة السوية ويسهم بشفائه.

وقد تكون الإشكالية الأخطر، هي الاقتصار في الدعاء على التوجه صوب الآخرة، على أهمية المصير كمحرك وموجه لمسارات

الحياة وأنشطتها باتجاه الخير، لكن المشكلة أن يقتصر الأمر على عدم الإبصار من الدعاء إلا الغفران والفعل الأخروي من رجاء الثواب، الأمر الذي عزل الدعاء شيئاً فشيئاً عن الحضور في شؤون الدنيا، وكأنما صار هناك فصل بين شؤون الدنيا ومهام الاستخلاف في الأرض، وشؤون الآخرة بشكل عملي، ولذلك تحرك الدعاء صوب الآخرة وانسحب من الدنيا وقضاياها، فتحول من حالة إيجابية تمنح اليقين والثبات والعزيمة والنشاط والفعل المستقيم المثاب الذي يهوِّن مصائب الدنيا والتعاطي معها، إلى صورة سلبية معطلة، بعيدة عن الشأن الدنيوي والانحباس عند الشأن الديني، بمفهومه الحسير، كشأن سائر الثنائيات الجدلية والخيارات، التي فرضت علينا من ثقافات الأمم السابقة، وما نزال نعاني منها والتي دمرت العقل البشري تاريخياً وبقي أمامها حائراً؛ لأنه عاجز عن الاختيار والمقابلة والمعادلة بين قضايا صعبة من مثل الدنيا والآخرة، والجسم والروح، والدين والدولة، والعلوم التجريبية والعلوم الشرعية، وما إلى ذلك من الثنائيات.

ومن هنا نعاود التأكيد (والكلام على لسان الأستاذ عمر عبيد حسنة): بأن الدعاء في الإسلام ليس رصف ألفاظ، أو حفظ مفردات تجري على الألسنة، أو تختزن في الذاكرة، بدون تفاعل وانفعال بها، وإنما هو علاج، وتعبير عن حالة نفسية من التذلل والاستنصار، هو

وسيلة شفاء، وتجديد، وإعادة ولادة للشخصية، ومحطة تعبئة للطاقات ليتابع الإنسان مسيرة الخير والاستقامة بلا هوان ولا تخاذل. وإذا تأملنا الأدعية المأثورة بتنوعاتها، رأينا لكل دعاء حاجته البشرية، وحالته النفسية، وظروفه الحياتية، وعلى الأخص عند معرفتنا بأسباب الورود، ومناسبات المعاناة، والمناجاة بها. فالدعاء فعل وفاعلية، وليس سلاح العاجز وتكريساً للعجز، ذلك أن الاستعانة بالله ـ سبحانه وتعالى ـ، معقد الرجاء وسبيل الصمود والثبات على القيم، وعدم الانكسار أمام الأزمة.

وإذا لازم الإنسان الذكر والدعاء فإن أثرهما ينسحب على حياته كلها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ الرعد: ٢٨. واطمئنان القلب يحقق التوازن داخل النفس الإنسانية، وهو أحد أعمدة الصحة النفسية التي تسهم مساهمة فعّالة في ارتقاء الإنسان نحو مدارج الكمال والمسيرة الصالحة، لذا يُعدّ الدعاء من أعظم وسائل الإصلاح النافعة، وهو السلاح المعطَّل عند الكثير، وقد فرطوا فيه وخسروه، إما جهلاً أو قلة يقين بأثره.

والدعاء في بابه عبادة، عبادة مقصودة لله أمرنا بها، والله يحب أن يتقرب العبد بها إليه، تحقيقا لمعنى الربوبية، وخضوعا واعترافا بحاجة العباد إلى من يتعهدهم ويكشف عنهم ما حل بهم من البلاء.

وليس المهم في الدعاء ما نختاره من الحروف، ولكن المهم ما ينتابك من الشعور.

وقد كان الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يقول: (إني لا أحمل همَّ الإجابة وإنما أحمل همَّ الدعاء). فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه إن شاء الله. ومن علامات توفيق الله للإنسان ثلاث، كما يراها ابن عطاء الله السكندري: (دخول أعمال البر عليك من غير قصد منك إليها، وصرف المعاصي عنك مع السعي فيها، وفتح باب اللجأ (بمعنى الاضطرار) والافتقار إلى الله تعالى في كل الأحوال. ومن علامات الخذلان ثلاث: تعسر الطاعات عليك مع السعي فيها، ودخول المعاصي عليك مع الهرب منها، وغلق باب اللجأ إلى الله، وترك الدعاء في الأحوال).

وهناك أماكن وأوقات وأشخاص أرجى لإجابة الدعاء، كما أشرنا إلى ذلك آنفا، فلنحرص عليها، وهناك أعمال وحالات تمنع إجابة الدعاء فلنتجنبها. والذكي من يجمع بين تخيّر الأماكن والأوقات والأشخاص الأرجى لإجابة الدعاء، مع الابتعاد عن موانع إجابة الدعاء.

وسؤال الوالدين الدعاء، أو من يتوسم فيه الناس الصلاح من أهليهم وأهل جوارهم، أمر مستحب، إذا تم بتلقائية وبروح التواصل والبر والمودة، لا بروح الدجل وادعاء مكانة هي بمنزلة التحكم في رحمة

الله. ومن المهم ألا يكون طلب الدعاء ممن يتوسم فيه الصلاح أداة لإعفاء الذات من التوبة، ومن العزم على الصلاح والتقرب إلى الله حتى يكون المرء أهلا للاستجابة. "فطلب الدعاء من الصالح يجب أن يكون مصحوبا ببذل الجهد لإصلاح نفوسنا، فيكون دعاؤه وسيلة إلى مزيدٍ من التقرب إلى الله، وليس وسيلة للتهاون وغيبة الوعي". د. عبد الحميد أبو سليمان

والدعاء، حسب تعبير الدكتورة سعاد الناصر، عنصر فاعل في إعادة بناء شخصية الإنسان المسلم، وفي تنمية قدرات مواجهاته لمختلف التحديات والأزمات، ووقف نزيف الألم والقلق النابع من داخله، من أجل التركيز على قضايا مصيرية تمس الفرد والأمة، وعاملاً أساسياً في تفجير طاقاته، وإشاعة روح النشاط في نفسه كي يقوم بواجباته، بدلاً من كونه (أي الدعاء) وسيلة للاتكالية والتجميد والخمول، كما أصبح عند سواد الأمة.

وفي نصٍ فريد لابن القيم الجوزية في كتابه الرائع (الداء والدواء)، يجمع فيه بعض شروط استجابة الدعاء، ويبين أوقات الاستجابة، ويشرح بعض آداب الدعاء، يقول فيه: (إذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب، وجمعه بكليته على المطلوب، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة، وهو الثلث الأخير من الليل، وعند الآذان، وبين الآذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم

الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم، وآخر ساعة بعد العصر، وصادف خشوعاً في القلب، وانكساراً بين يدي الرب، وذلاً له وتضرعاً ورقة، واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله تعالى، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله وألحّ عليه في المسألة، ودعاه رغبة ورهبة، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدم بين يدي دعائه صدقة، فإن هذا الدعاء لا يكاد يُردّ أبداً، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم أنها مظنّة للإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم).

إن على الإنسان أن يردد ذلك الدعاء الذي دعا به أحدهم قائلًا: اللهم امنحني الشجاعة لتغيير الأشياء التي باستطاعتي تغييرها، بل يتعين عليَّ تغييرها، وامنحني السكينة التي تساعدني على تقبل الأشياء التي لا يسعني تغييرها، وامنحني الحكمة لأدرك الفرق بينهما.

عيد القلب ♥ ♥ ♥

لسان حالي وأنا أودع رمضان يردد مع المتنبي قوله:

أروح وقد ختمت على فؤادي بحبك أن يحل به سواكا

وقد حملتني شكرا طويلا ثقيلا لا أطيق له حراكا

لعل الله يجعله رحيلا يعين على الإقامة في ذراكا

وأياً شِئتِ يا طُرقي فكوني أذاةً أو نجاةً أو هلاكا.

مع فارق مهم هو أن الطرق التي نرجوها من ربنا طريق واحد هو طريق النجاة والعتق من النار لا غيرها.

يقول الإمام علي رضي الله عنه، مخاطبا كُميل: (يا كميل إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها). (وإن القلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة). وقال أيضا: (روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا أكرهت عميت).

ومن خلال الرؤية السابقة يمكن القول أن: العبادة إذا أتى بها الإنسان بدون رغبة، وأكره الروح عليها، فلن تكون مفيدة، بل قد تكون مضرة أيضا، ولذلك فالرغبة في العبادة يجعل لها مذاقها ونورها، بينما الإتيان بها في ملل وكسل يجعلها مهلهلة، وتأمل قول الله تعالى فيمن يقومون للصلاة في حال من عدم الرغبة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ

ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ النساء: ١٤٢.

إن القلوب تحتاج إلى قسط من الترويح، بعد الجهد الذي بذلته، والعطاء الذي قدمته، ولهذا جاء العيد، ليعطي متنفسا للقلوب كنوع من العبادة، وكمكافأة على ما أسلفت في الأيام الخالية، فالجد والصرامة والاجتهاد المستمر المرهق، قد يؤدي إلى عكس المرجو منه، فأسعدوا قلوبكم في هذه الأيام، وكافئوها بنوع من المرح والسرور، حتى تستأنف تواصلها مع ربها فيما بعد، وقد أخذت حاجتها من التجديد والنشاط، وخذوا في الاعتبار وقايتها من شر الوباء الذي حلّ بوطننا.

وبالمقابل، وبين يدي مناسبة العيد، فإننا نهنئ بعضنا بعضا بذلك، لكن أتدرون لماذا نرسل التهاني والتبريكات في الأعياد والمناسبات، وكذا التعازي لبعضنا بعضا؟ والجواب: لكي نثبت لأنفسنا وللآخرين أننا لا زلنا أحياء، وأن لنا قلوبا لا زالت تنبض... وأن بمقدورنا التواصل بمن نحب. وأن هناك ممن نحبهم لا يستطيعون التواصل معنا، ولا نستطيع التواصل معهم عبر شبكات التواصل المعروفة، ولكن بإمكاننا التواصل معهم بطرق أخرى، هي الدعاء لهم وتقديم كل خير على نيتهم، والسير على خطاهم، في طريق الاستقامة.

وعبركم، وفي هذه المناسبة العظيمة، وفي غمرة فرحنا بالعيد، نرسل الكثير من الدعوات والابتهالات لمن غادرونا ممن نحبهم، وتهفو قلوبنا للقياهم، بأن يتفضل الله عليهم بالرحمة والغفران.

والإنسان حين يعثر على الجمال والسعادة والفرحة في قلبه سيعثر عليه في كل قلب. ولقد كان صلى الله عليه وسلم، يعرف كيف يملك القلوب، لأنه يعرف كيف يحب، وكيف يعبر عن حبه للآخرين، يهتم لهمومهم، ويتودد إليهم، ولا يبخل بأي كلمة طيبة لكل أحد. ولأنه كان كذلك، فإنه كان يدرك أن إزالة الأذى عن طريق القلوب أعظم أجرا وأشد إلحاحًا من إزالة الأذى عن طريق الأقدام.

إن ما تمارسه يومياً سوف تتقنه بكفاءة عالية، فعندما تمارس القلق يوميا؛ سوف تتقنه لدرجة أنك ستقلق لأتفه الأمور، وتصير (خبيرا بالقلق) تبحث في أدق تفاصيل حياتك عن أسباب القلق لتقلق! وعندما تمارس الغضب يوميا؛ ستغضب وبدون سبب يستدعي غضبك. مارسوا الطمأنينة لتتقنوا السكينة والراحة... مارسوا التفاؤل والأمل، مارسوا الحب والسلام، مارسوا الثقة وحسن الظن بالله في حياتكم لتنعموا بدرجة (خبراء) بالسعادة والأمان والخير وراحة البال.

العيد -أيها الأحبة -تقاسمٌ للفرحة وتخفيف للمعاناة، قد يفرح أناس في غير العيدين بمناسبات شتى، ولكن تبقى فرحة العيدين

فرحة عامة شاملة، لا ترتبط بغني أوفقير أو ذكر أو أنثى أو كبير أو صغير، هي فرحة شاملة للجميع، والسعيد من يدخل الفرحة على كل من يستطيع.

والإحساس بجمال العيد لا يمكن أن يكون فردياً، فجماله مرتبط بتقاسم الفرحة مع الآخرين، والسعي لإدخالهم في هذه الفرحة، التي لا تكتمل إلا بوجودهم فيها، فالعيد للجميع، وبقدر ما تكثر فئة الذين لا تصلهم هذه الفرحة، بقدر ما تقل الفرحة وتتراجع وتنحسر لدى من يستطيعون الاحتفال بهذه الفرحة.

كل بيت دخله رمضان لا بد أن يدخله العيد، وهذه مسؤولية كل من دخل بيته رمضان وسيدخله العيد لأنه مستطيع، فلتأخذوا معكم أناس ينتظرون العيد بشوق كما تنتظرونه، ويريدون أن يروا فرحته في وجوه أطفالهم، فاكتمال فرحتكم بإدخال الفرحة عليهم.

تلذذوا بفرحة العيد بإفاضتها على الآخرين، خذوا بأيدي الآخرين لتفرحوهم وتزداد فرحتكم بفرحهم. أفضل عبادة وقربة تتقرب بها إلى الله في هذا اليوم هي السعي لإدخال السرور إلى كل بيت يحتاجه، وقمة الإيمان والإنسانية والشهامة أن تدخل السرور على أخيك المسلم.

مراجع مختارة

أ. د. إبراهيم عبد الرحمن رجب، التأصيل **الإسلامي لأسباب المشكلات النفسية الاجتماعية**، مجلة المسلم المعاصر، العدد 106، بيروت -لبنان، 2002م.

أ. د. أحمد الريسوني، **نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي**، الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط4، 1416 هـ. 1995م.

أ. د. أحمد محمد الدغشي، **الأساس الفطري للتربية الإسلامية**، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان .الأردن، الطبعة الأولى، 2017م.

أ. د. أحمد محمد الدغشي، **نظرية المعرفة في القرآن الكريم وتضميناتها التربوية**، دار الفكر، دمشق، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأردن، ط1، 2002م.

أ. د. عبد الكريم بكار، **اكتشاف الذات، دليل التميز الشخصي**، دار الإعلام للنشر والتوزيع ، عمان - الأردن، ط1 ، 2001 م.

أ. د. عبد الكريم بكار، عصرنا **والعيش في زمانه الصعب**، دار القلم، دمشق، ط1، 2000م.

أ. د. عبد الكريم بكار، **فصول في التفكير الموضوعي، منطلقات ومواقف**، دار القلم ، دمشق ، ط3 ، 2000م.

أ. د. عبد المجيد عمر النجار، **الشهود الحضاري للأمة الإسلامية، عوامل الشهود الحضاري (1، 2، 3)**، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1427هـ. 2006م.

أ. د. عبد الوهاب المسيري، **رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار**، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ، ط1 ، 2000م.

أ. د. فتحي حسن ملكاوي، **منظومة القيم العليا التوحيد والتزكية والعمران**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن. فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الأولى، 1434هـ. 2013م.

أ. د. فؤاد البنا، **خصائص الشخصية التي تصنع الحضارة رؤية قرآنية**، مجلة حضارة . تصدر عن مركز الأمة للدراسات والتطوير، العدد 22، ذو القعدة 1440 هـ . 2019م.

أ. د. ماجد عرسان الكيلاني، **مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح**، كتاب الأمة العدد 29 ، 1991، ط1 ، دولة قطر.

أ. د. ماجد عرسان الكيلاني، **هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس**، مكتبة دار الاستقامة، مكة المكرمة ، السعودية ، ص2، 1998م.

أ. د. محمد السيد الجليند، **قضية الخير والشر لدى مفكري الإسلام، أصولها النظرية . جوانبها الميتافيزيقية . آثارها التطبيقية، دراسة علمية لمسؤولية الإنسان في الإسلام**، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة، الطبعة السادسة، سنة النشر 2010م.

أ.د. عبد الحميد أبو سليمان، **قضية المنهجية في الفكر الإسلامي**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، إعادة طبع، 1416هـ . 1995م.

ابن عطاء الله السكندري، **الحكم العطائية**، شرح عباد النفري الرندي، مركز الأهرام، القاهرة . مصر، الطبعة الأولى، 1408هـ . 1988م.

أدهم شرقاوي، **نبأٌ يقين**، دار كلمات للنشر والتوزيع، دولة الكويت، الطبعة الأولى، 2018م.

الأستاذ محمد قطب، **في النفس والمجتمع**، دار الشروق، القاهرة، ط9، 1989م.

أليكسي هاليي، مالكوم إكس، (**سيرة ذاتية**) تأليف: ترجمة: ليلى أبو زيد ، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام ، بيروت . لبنان ، ط1 ، 1996م.

جان ماري بيلت، **عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة**، ترجمة: السيد محمد عثمان ،سلسلة عالم المعرفة، العدد 189 ، سبتمبر 1994 ، الكويت.

جودت سعيد ، **حتى يغيروا ما بأنفسهم ، أبحاث في سنن تغيير النفس والمجتمع** ، طبع في مطبعة زيد بن ثابت الأنصاري ، دمشق ، ط8 ، 1989.

حسن أوريد، **رباط المتنبي (رواية)**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء. المغرب، الطبعة الأولى، 2019م.

الخضر سالم بن حليس اليافعي، **أسرار الخطبة المتميزة**، مكتبة خالد بن الوليد، صنعاء - اليمن، الطبعة الأولى، 2008م.

د. جاسم سلطان، **النسق القرآني مشروع الإنسان (قراءة قيمية راشدة)**، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت. لبنان، الطبعة الأولى، 2018م.

د. جاسم سلطان، **أنا والقرآن محاولة فهم**، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت. لبنان، الطبعة الأولى، 2015م.

د. جيفري لانغ، **الصراع من اجل الإيمان، انطباعات أمريكي اعتنق الإسلام**، ترجمة: د. منذر العبسي، دار الفكر، دمشق. سوريا، ط2، 1421 هـ. 2000م.

د. جيفري لانغ، **حتى الملائكة تسأل، رحلة إلى الإسلام في أمريكا**، ترجمة: د. منذر العبسي، دار الفكر، دمشق. سوريا، ط2، 1434 هـ. 2013م.

د. زكي نجيب محمود، **عن الحرية أتحدث**، دار الشروق، القاهرة، جمهورية مصر العربية، الطبعة الثالثة، 1989م.

د. سلمان بن فهد العودة، **زنزانة عادة مدى الحياة**، دار وجوه للنشر والتوزيع، الرياض. السعودية ، الطبعة الأولى ، 2014م.

د. سلمان فهد العودة، **طفولة قلب، دون التذكر وفوق النسيان**، سيرة ذاتية، مؤسسة الإسلام اليوم للنشر والإنتاج، السعودية، الطبعة الأولى، 1432 هـ. 2011م.

د. عبد العزيز بن مرزوق الطريفي، **التفسير والبيان لأحكام القرآن**، المجلد (1، 2، 3، 4، 5)، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض. السعودية، الطبعة الأولى، 1438هـ. 2017م.

د. عبد العزيز بن مرزوق الطريفي، **سطور من النقل والعقل والفكر**، جمع وترتيب: عزام بن محمد المحيسني، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، 1436هـ. 2015م.

د. علي عزت بيجوفيتش ، **الإسلام بين الشرق والغرب** ، ترجمة : محمد يوسف عدس ، دار النشر للجامعات ، مصر ، ط2 ، 1997م.

د. محمد الوكيلي، **فقه الأولويات دراسة في الضوابط**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، الطبعة الأولى، 1416هـ. 1997م.

د. محمد بن حامد الأحمري، **نبت الأرض وابن السماء، الحرية والفن عند علي عزت بيجوفيتش**، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 2009م.

د. محمد بن محمد الأسطل، **فقه الاستدراك كيف تُصحِّح المسير، وتستدرك ما فات في العمر الطويل في زمن قصير؟** الطبعة الأولى، 2019م.

د. محمد عبدالله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن ، دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن** ، ترجمة وتحقيق وتعليق: د. عبدالصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة ، ط10 ، 1998م.

د. محمد علي الجوزو، **مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة**، دار العلم للملايين، بيروت . لبنان، الطبعة الأولى، يناير 1980م.

د. نبيل سليم علي، **الطفولة ومسؤولية بناء المستقبل**، كتاب الأمة رقم (92) ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الدوحة . قطر، ط1 ، 2003م.

د. يحيى رضا جاد، **الحرية الفكرية والدينية رؤية إسلامية جديدة**، تقديم: أ.د. أحمد كمال أبو المجد، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1434هـ. 2013م.

ستيفن. ر. كوفي، **العادة الثامنة من الفعالية إلى العظمة**، دار الفكر، دمشق ، ط1، 2006م.

الشيخ سعيد حوى، **تربيتنا الروحية**، دار عمار، بيروت . عمان، الطبعة الأولى، 1409هـ . 1989م.

الشيخ سعيد حوى، **جولات في الفقهين الكبير والأكبر وأصولهما، أبحاث تجيب على أهم الأسئلة في نظريات الثقافة الإسلامية**، دار القادسية بالإسكندرية، الطبعة الأولى، 1400هـ 1980م.

الشيخ محمد الغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم**، دار الشروق ، القاهرة ، مصر ، ط 5، 2002.

الشيخ محمد متولي الشعراوي، **تفسير الشعراوي -الخواطر، أجزاء متفرقة**، مطابع أخبار اليوم، القاهرة، مصر، 1997م.

الشيخ مرتضى مطهري، **أنسنة الحياة في الإسلام**، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت .لبنان، الطبعة الأولى، 1430 هـ. 2009م.

مازن موفق هاشم، **مقاصد الشريعة الإسلامية: مدخل عمراني**، المعهد العالمي الإسلامي . هرندن . فرجينيا . الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الأولى، 1435هـ. 2014م.

مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ترجمة: عبدالصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1986م.

السيرة الذاتية ..

الاسم : د / يحيى احمد حسين المرهبي

محل وتاريخ الميلاد / حجة – ١٩٧٣/٢/٥م

الحالة الإجتماعية : متزوج وأب لـ ٧ بنات و ٣ أولاد

محل الإقامة : الجمهورية اليمنية – م / عمران

مدينة عمران – حارة النهضة السكنية – شارع ٢٢ مايو

موبايل : ٠٩٦٧٧٧٤١٥٥٦٠٢

البريد الإلكتروني almerhbi2010@gmail.com

صدر للمؤلف